إلى القارئ

هذا العــدد عنيت أسرة « الفــكر » بتركيزه أولا حول ابــراز البطولــة الجزائرية ، كما يصورها الادب العربى الحديث ـ وقد مرت خمس سنوات على الثورة المباركة التى أبـلى فيها اخواننا الجزائريون البـلاء الحسن ، وثانيا حول تأكيد ما للحضارة الجزائرية من أصالة وما لحق الفــكر وكبت الوجدان فى أرض الفــداء من اجرام فى ذات الانسانيــة ٠

فالثورة ـ فى أسمى معانيها وأبعد مقاصدها ـ فرض لوجود وتأكيــد لذاتية وتزكية لروح ، وهى تحسس واكتشاف وتجاوز وتجدد وخلق ، بذلك تنتسب الى الانسان وتفتح له آفاق التقدم الشاسعة وتدير عجلة التاريخ ٠

وكثيرا ما أكدنا فى هذه المجلة ان شر مظاهر الاستعمار فى أرض الجزائر محاولته مسخ الامة الجزائرية والقضاء على مقوماتها وتشويه معالمها والحيــلولة ـ بالتابع ـ دون ما يمكن أن تساهم به هذه الامة فى انماء تراث البشرية وما تأتيه من خصب التجارب الانسانية ٠

وأعــز مطالب الثورة الحرية ، لانها شرط تقرير المصير وبناء المستقبل ، وما ان تتوفر أسبابها وتنبثق فى الافق أنوارها وجب تغيــير اتجاه الثــورة وملاءمتها مــع مطالب الظرف الراهن والواقع الماثــل ٠

معنى ذلك ان الثورة كى لا تكــون مجرد تمرد أو حنينا رومنطيقيا وكى تبقى لها قداستها وانسانيتها يجب أن تــتواصل تساميا نفسيــا ومغالبــة للاوضاع الرجعية ونشدانا للعدالة الاجتماعية والازدهار الاقتصادى وتوقا الى المثل العليا وعملا دائبا كى يشعر المواطنون بـ « فرحة الحياة » ٠

ان الامل متزايد فى تغلب قــوى الخــير والســلام ، ولا شك ان اخواننا الجزائريين ، الذين عرفوا كيف يصمدون ويفرضون وجودهم ، والذين قدموا التضحيات الجسام فى سبيل عــزة الوطن واستقلاله ، سوف يقيمون الدليل على مقدرتهم فى بناء مجتمع فاضل عادل يقوى به ساعد المغرب العربى الكبير ونتباهى به جميعا بين الامم ٠

الفكر

مأساة قلب

من وحي الثورة الجزائرية

بقلم احمد المختار الوزير

كانت بخيمتها ، وكان حيا لها ‏ أم ، وأطفال صغار نوم
تنتابها الذكرى فتقرح قلبها ‏ يا للاسى يقسو ، ولا من يرحم
وتظل هند ، بين يأس فاجع ‏ حينا ، وحينا للرجاء تبسم
أتقيم في ظل الخيام ، قريرة ‏ أم تنتحي ، حيث الجماجم والدم

**

سارت ، تعثر ، والسبيـ ‏ ـل ، أمامها ، عمه ظلام
حيرى ، تجاذب قلبها الـ ‏ ـمضنى ، وقد بعدت ، خيام
ترنو ، كما يرنو ، الى ‏ مغنى الحبائب ، مستهام
تشقى بأشواق لمن ‏ تركت ، ويزعجها أمام
فهناك ، أطفال وأم ‏ دون خيمتها ، نيام
وهناك فيما تجتلي ، ‏ حد وحراس قيام
تمشي فيحمومي الطريـ ‏ ـق ، وتستزيد بها ضرام
يا قلبها ، ماذا يعاني ‏ قلب أم تستضام
يا قلب هند ، مزقتك ‏ وأوغلت فيك السهام
هذا حنينك للخيام ، ‏ وذاك ، للقتلى ، ذمام
هذا حبابك للسلام ، ‏ وذاك ، للوطن ، انتقام
وترعشت ، في جفنها الاحـ ‏ ـلام ، يحجبها قتام
تنأى غواربها ، مفـ ‏ ـزعة ، ويقصيها جهام
أعييت ، فاوت للظـ ‏ ـلام ، هناك ، يؤنسها هذام
نصل رهيف الحد بتـ ‏ ـار ، يواريه اكتتام
حملته هند في لـ ‏ ـفاق الثوب موعده اصطدام
نامت ، وللبوم الاليـ ‏ ـف الى مسامعها ، بغام
ماذا على أجفانها ، ‏ ياليل ، حرب أم سلام ؟

البطولة في الثورة الجزائرية

بقلم مصطفى الاشرف

ان الافكـــار الوطنية ذات اللب والاتقان تمكن غالبا فى ضمائر فئة من الناس تخالجهم بدقـة واضحة ؛ واذا وجدوا أنفسهم فى حالـة من العزل والضعف النسبى ، آثروا الكفاح السياسى الصريح ، ان أمكن ذلك ٠٠٠ ولكنه لـم يتمكن لهم بالمرة والطغيان الاجنبى سائد ، ومقابض القوة المسلحة وأسباب القـوة الاقتصادية بأيـدى أقلية من الغـاصبين الظالمين يتصرفون فى مصير شعب باكمله حسب ما توحيه اليهم اهواؤهم العابثة ؛ اما الشعب ، فان له فى الموضوع اراء أخرى مصدرها **القومية** الحدسية ، ومبعثها **المنطق الغريزى** السليم الذى لا يعبأ تارة بما تفرضه سطوة الظروف أو لزوم **التدريج فى عمل** سياسى لايؤمن بنفاذه البتة وهو تحت نير الاحتـلال المنافـى لادنى تحـرر سلمى يقع برضا المستعمر ٠ والعامة تذهب فى ذلك مذهبها **فى العمـــل** بالشرعيات ، فهى تقتصر على الفرض والواجب والحلال والحرام وقلما **تفقه** معنى للمباح والمكروه والمستحب ؛ وسنراها فى ميدان **البطولة والجهاد تبـالى** بالكليات والاصول أكثر مما تعتنى بالجزئيات والفروع فيطرأ على **ذلك تضحيات** جسام وأضرار عظـام يقـرأ لهـا الشعب حسابهـا ، لا لانـه يعتبر أعمالـه كنوع من الانتحار او كلون من الرياء ، بل لان هناك تعبيرا كليا بالذات وما فيها من مشاعر وأفكار وأعصاب وعضلات ودم وروح ؛ ومن بين المشاعر ما يشوبه الخوف ويخالطه التردد ويمازجه الريب ؛ ومن بين الجسمانيات ، مافيه توتر او قلق او رعشة وما فيه عرق وكزز ، وهذا شأن كل من يواجه الموت وبالاحرى اذا كان شابا يجاهد فى سبيل الحياة المثلى ، وربما يتظاهر الشعب المغلوب على امره بمظاهر الخذلان واليأس اذا كان اعزل ، عديم القادة ، ولكنه لا يفقد الرجاء يوما من الايام فى التحصيل على السلاح وايجـاد العزائم الحرة فى ابنائه ؛ وبمجرد ما يحصل على السلاح ولو على القليل منه ، وكأن الابواب تتفتح امام ارادته ، وكأن لآماله مسالك شاسعة المدى ، تذهب به كل مذهب فتوفر لديه الامكانيات المعنوية مع الضيق المادى ويظهر لنا من هذه الناحية ان البطولة الشعبية ليست محض انتحار جماعى تدفع اليه اللامبالاة او يدفع اليه اليأس ، ولطالما سمعنا عن باقية الاسلاف بعد انهـاء الثورات الجزائرية الكبرى فى اواخر القرن الماضى ، صدى التلهف المتردد الذى كان يخالج الشعب فيما

يخص طلب السلاح عبثا ، وكثيرا ما وقع ذلك ابان الثورة الحاضرة ، ومن العجيب ان منظمات كاملة العدد ، (تسع الخمسين او المائة من الشبان) عديمة الجهاز اللائق ، ماعدا بضعة بندقيات من الطراز البالى ، زحفت الى مقارعة العدو وكأن تمسكها بتلك البضعة الضئيلة من السلاح غير الكافى لجميع المحاربين ، قد ضاعف معنويات رجالها وزادهم بأسا وعزما ، فأصبحت حصتهم التافهة من السلاح كالخاتم السحرى الذى يبدد الظلمات ويخترق تراكم الاهوال والزوابع ؛ وقع ذلك فى الاشهر الاولى للثورة ، وكان الباعث فيه أن لاتخيب الجماهير بعد اندلاع فاتح نوفمبر 1954 اذا ما رأت فتورا ما — أو تخيلت أن تراه — فى سير الجهاد ، وأن ينتظر توفر العدة اللازمة انتظارا ايجابيا يزيد فى استعداد الشعب الروحى حتى يتيقن من كفاية السلاح ، وهو قليل فى حقيقة الامر ، ومن استبسال أبنائه ، وهم مصرون على جهادهم ولذا ، علينا ان نراعى تلك الظروف والاوضاع التى صارت تهيمن على خلق بطولة جديدة يكون للسلاح فيها قيمة شبه الرمزية الى حد ما ، **وريثما تتأهب الضمائر والعزائم لمجابهة حالة خطيرة** ، وتستيقظ الارادات الكامنة والهمم الراكدة ؛ ثم تكون له قيمة حاسمة فى مراحل التجمهر والمقاومة وعندما تشتد الغارة من جانب المستعمرين وتضخم افواجها وتترى · ويبقى التباين شاسعا مستمرا ، يرجح بالعدد والعدة والضغط لفائدة المستعمرين ، ويرجح بالايمان والمعنويات والشعور بالحق والتضحية لصالح الوطنيين · وتتراءى لنا من خلال ذلك ميزة أخرى تتصف بها البطولات الثورية فى ميدان التحرير الوطنى ، وهى النضال من أجل الحق ، وكأننا بالمجاهد وهو يعزز جانبه بتضامن العالمين له ، والكون والمخلوقات جمعاء ؛ وكأن الطبيعة الشعواء التى التجأ اليها تحتضنه كالام الحنون وتؤيد كفاحه ؛ وليس ابرع دليل على هذا من أقصوصة عن الثورة الجزائرية نشرها عثمان سعدى بمجلة « الآداب » اللبنانية لشهر مايو 1959 ، يقول فيها البطل بعد عملية فدائية ناجحة ضد معسكر فرنسى وهو يحاول التخلص من التطويق الذى ضربه العدو عليه وعلى رفيقيه : « هل أنا هو الذى تسلق هذا الجدار الصخرى الفظيع ؟ اننى لا أصدق عينى ! نعم ، أنا الذى فعلت هذا وما زلت أتحسس فى نفسى قوة تمكننى من الوصول الى قمة « شيلية » بجبال أوراس · ما سر هذه القوة ؟ وهذا النضال العنيد ؟ انه الايمان ·· الايمان بالله وباليوم الافضل المنشود·· لقد أكسبنا ، نحن المجاهدين ، التزامنا لقضية الجماهير « قوة هذه الجماهير « نفسها وأصبح الفرد منا يؤدى عمل جماعة بأسرها ··· ألم تهتز قاعدة « كاملة بطيرانها وبوليسها وجنودها المحترفين ومدفعيتها من أجل ثلاثة

« فدائيين ؟ كانت صفارة الخطر تطلق فى الحرب العالمية الثانية من اجل
« سرب طائرات ألمانية ... اما فى ايامنا ، فانها تطلق من اجل فدائى
« معزول ... كنت ، وانا اقطع صخور « وادى الرمال » ، أحس بأن الكون
« كله ، بكواكبه ونجومه وشهبه ووديانه وبشره يحارب معى ، لاننى اؤمن
« كما يؤمن اى مجاهد اننا نناضل من اجل الحق ، من اجل مثل ... من اجل
« مبادىء تقربها شرائع السماء والارض ، وتعمل من أجلها الملايين فى مختلف
انحاء العالم .. » فانا نقف من بطل الاقصوصة وهو يدرج فى معانى الجهاد ويتخلل فى الكون بعطفه ويستمد منه قوته ، موقفنا من بعض الصوفية كمحى الدين بن عربى وافكاره فى اتصال الحق بالخلق وفى وحدة الوجود بصفة عامة ؛ وانها لميزة فى غاية الدلالة على التصاعد المعنوى الذى يجعل من المجاهد الوطنى رجلا ذا مثالية كلية خارقة تحتضن الكون والبشر باسرهم ، ونزيد على سبيل التدقيق قائلين ان البطل الثورى يحب جميع الثورات التحريرية الشعبية اينما وجدت ويمقت جميع الطغاة الظالمين اينما كانوا لان ايمانه بالحق والحرية ايمان كلى هو الآخر ، ومن أهم الاحداث على الاطلاق ، تلك التى ادخلت فى رقعة الجهاد وروحه ، كيلا جديدا وعرضا أى عرض هما التوغل فى الغابات والجبال ، والانتعاش بمناعتها الرصينة المهيبة ، وليس هذا مجرد استعارة فى الكلام ، اذ الجبال والغابات هى قواعد البلاد الراسيات وركائز ثباتها وجذور دوامها الكونى ، ولا يبعد الرأى من انها تلهم اولادها فى ايام الجد وتأسوهم فى ايام الشدة . وكم للشعراء والكتاب فى هذا المجال من عبر ونظرات ان اعوزتهم الموضوعات ! وكم لهم من مصادر للوحى ومنابع فى تلك الطبيعة المهملة المجهولة بالامس والتى اصبحت تأوى شعبا كاملا وتحوى مسالكه الخفية ومراكزه السرية ومخازن سلاحه وميزته ، وتأمن المغارات العميقة والرزاز والقمم الشاهقة والوديان الجرداء التى اتخذها أبناء الشعب حصونا وقواعد لهجوماتهم المتوالية الخاطفة ، وصدق محمد صالح باويه اذ قال : « فى كهوفى ، فى حقولى ثورة النصر كنوز تختفى »

ولسنا ندعو الشعراء الى مدح طبيعة « داجنة » مؤنقة ، ملطفة ، مخنثة ، طالما اشبعنا وصف ربيعها وارونا الى حد التخمة والسامة ، وانما هى طبيعة الشنفرى والطرماح ذات الذئب والطير ، وطبيعة ذى الرمة وابن شهيد ذات الجن والغول ، وغابات أساطيرنا الشعبية التى تكفل اليتامى وتجعلهم يأنسون الوحوش ويؤنسونها

وللغابات معان أخرى ورموز لا تنتمى الى النشوة « الرومنطيقية » بل الى

مفاهيم الحرية العاملة واباء الضيم والخفاء الايجابي ، وقد بين ذلك ، الفيلسوف الالماني « أرنست يونغر » (Jünger) في كتيب قيم الفه سنه 1951 وربط فيه الصلة الوثيقة بين « المتمـرد » الثائر ومـا يسميه « بالالتجاء الى الغاب » (١) او على الاصح : الاستعاذة بها من الظلم والطغيان ؛ وليس المعنى هنا معنى حرفيا بحتا ، وليس الموقف موقفا سلبيا فاترا مذعورا ، وانما هو عبارة عمن هرب بايمانه وتستر وانفرد مع نخبة مختارة من رفاقه ليحاربوا الاستبداد ، لا ليتخلصوا منه بالفرار ٠ والغابة بذاتها ميدان للحرب ٠ ويقول « يونغر » (Jünger) : « اما الساحة التي يجري فيها كفاحه (اي الثائر)
« فهي الغابة الموجودة بكل مكان ٠ توجد الغاب في الخلاء وتوجد في المدن ،
« ويعيش فيها « المتمرد » مختفيا ، يتخذ عمله العادي قناعا للتنكر ٠ وهناك
« غابات في وطنه ، وثمة غابات أخرى بكل أرض سواه تليق لبسط مقاومته
« والقيام بها ، وتوجد الغاب بالاخص بين ظهران العـدو ، وليس المتمـرد
« بالرجل المغتر ٠٠٠ فانه يعرف معتقلات العدو الاجبارية ، ويعرف مخابيء
« المضطهدين وملاجيء الفئات القليلة التي تنتظر ساعة العمل ٠٠٠ فهو من
« يقوم بجهاده على طول السكك الحديدية وطرق التموين ، ويهـدد الجسور
« وجهاز المواصلات ، والمستودعات ، ويضطر العدو ، بمجرد وجوده ، لتوزيع
« الجيوش الدفاعية وتوفير مراكز الحراسة ؛ وينظم المتمرد شرك الاستعلامات
« المتسلسلة ، والعرقلة والتخريب ونشر الاخبار بين الجماهير ، وينسحب
« (بعد ذلك) في المواضع الوعرة غير المسلوكة وتحت الظواهر المجهولة
« التي لاتنبيء عن اسمه ٠٠٠ فهو الرجل الذي يبث القلق والانزعاج عـلى
« الدوام ، ويثير الافزاع الليلية غير مباشرة ٠٠٠ » أليس هذا الذي عرف به الثائر الجزائري من فدائي وجندي ومسبل ؟ أجل ، انها البيئة الجزائرية بعينها ، وانه المسرح البطولي الذي تسعه الجزائر من أقصاها الى أقصاها منذ خمسة اعوام وسرعان ما يتجاوز الفيلسوف الالماني تكهنه العجيب الى تفسير القيم التي يستهدفها الثوار في عصرنا هذا المتصف بصفات الاستبداد والذعر والكوارث حسب تعبير (Jünger) ومن بين تلك القيم التي تدرأ بها الدواهي المذكوره يلح ، طبعا ، فيم للحرية من عظيم الشأن ، ولكنه لايكتفي بنعتهـا المتداول ، بل يسعى الى تقليب الاوضاع المأثورة ويقـول : ولا بد من مفهـوم

---

(١) نقل كتاب (Jünger) الى اللغة الفرنسية سنة 1957 تحت عنوان « Traité du Rebelle ou le recours aux forêts » تأليف ونشر éditions du Rocher, Monaco :

« جديد للحرية لايعزى بشيء قط الى المفاهيم التفهة،عديمة الملح والذوق التى
« تدل عليها الآن كلمة حرية ، ومن المفروض فى اول الامر ان لايقتنع الانسان
« بسلامة « جلده » ونجائه ، ولكن أن يكون كذلك فى استعداد للمخاطرة به»
فهى اذن حرية فعالة لا تركن الى التمتع بالدعة والانانية والتقاليد السفسطاية ،
ويزيدها الفيلسوف وضوحا اذ يقول ، وكأنه يريد به تسكين الخواطر التـى
تزعجها الحقائق الجديدة : « انما هى الحرية القديمة وقد كساها زى العصر :
« الحرية الجوهرية الاولية التى تستيقظ فى قلب الشعـوب عند ما يثقل عـلى
« بلادها طغيان الاحزاب واستبداد الغزاة الاجانب ، ولسنا نعنى بذلك حرية
« بين اثنتين : اما الاحتجاج واما الهجـرة ، ولكن حريـــة أبت الا أن تشن
الغـارة » وقـــد صـادفـت حقيقـة (Jünger) واقعـــا أضحـى الشعب
الجزائـرى يعيشـه بـالكـلية ، لا سيمـا تلـك الحـرية التـى
خولتها الجماهير طاقة تحريرية هائلة فصارت **تحريرا** وكفى ؛ تلك الحريـــة
التى تجعل من كفاحها شيئا وضعيا « لان الثائر ، كما يقول المفكر الالمانى ،
« هو الشخص الملموس الـذى يعمل فى الظـرف الملموس ... وهو الذى
« يتوصل الى منابع المروءة قبل ان توزعهـا (فى الناس) قنـوات الشرائع
والقوانين » . وهناك جانب آخر فى مقاومة الشعوب ، من موجبه ان لاتتقيد
بما سنه لها المستبدون ، بل تعارضه وتسير مع أنظمة غير انظمتهم ، بشرط
أن تساير هى الاخرى مبادىء العـدل والانصاف والكرامة ؛ والمروءة تشمل كل
هذا وسواه من المفاهيم وتحتوى حتى البطولة ، ومن البديهى أن تكون للبطولة
فى ذلك الحق النفسى العام معان ممتازة ذات خطورة وجدوى ، وذات رونق
مهيب جليل ، بالرغم من الخفاء الذى ترتديه لزاما او غالبا ، ولعل (Jünger)
يشير فيما يـأتى ، الى أهم خاصية تمتاز بهـا المقاومة التحريرية وبطولتها فى
العصر الحاضر ، وهى الخفية فى العمل الى حد الغلو فى نكران الذات والنزاهة
والاقدام على الهلاك ، ولا على سبيل المنفعة الوضعية فحسب ، ولكن بدافع من
التضحية القصوى وردع الخوف ، فيقول : « ان الغابة كتامة لاتبوح بالاسرار ..
« وهى منزل الموت الاكبر ، ومقر لخطر من اخطار الابادة والفناء ، ومن مهمة
« الهداة المسؤولين أن يأخذوا بيد من يدلون لكى يتغلب على الخوف ؛ فهم
« الذين يجعلونه ، على المدلول الرمزى ، فى حالة من يموت ويبعث ؛ وان
« النصر لقريب من التهافت ، مجاور له ؛ فتعين معرفة ذلك على الترفع فوق
« العنف الدهرى ، اذ يدرك الانسان بسببها أن الظلم العنيف لن ينال منه
« شيئا بل من شأنه أن يقره فى فضله الجليل وعظم كرامته » .

ان فى شرحنا لاراء المفكر الالمانى رغبة ترمى الى تحليل ظروف جديدة قد انعكست فيها صورة المقاومة الجزائرية بصدق عجيب ٠ فهى بطولة اصبحت تسردها الحوادث سردا وتعدد ماثرها يوما فيوما ، والاستشهاد « بيونغر » معناه ايضا الدلالة على عالم باطن ظاهر من المعنويات والحقائق كاد يسود تدريجيا فى الضمائر والعقائد والواقع اليومى ، ويحل محل ما سبقه من الاوضاع البالية والمفاهيم المزيفة والقيم العليلة ، والحريات الكاذبة ، والاوهام التى تضحى لها بعض الشعوب بمستقبلها عن طيب خاطر وهى تفضل الاقتناع بحاضرها المبهم لانه يزدان بزخارف خلابة من الاستقلال والسيادة ٠

فى ودنا ان ينظر القارىء الى ما سبق نظرته الى رسم عام يسع مشاكل الرجل الثائر فى صراعه العنيد وهو بين البقاء ، والنصر والهزيمة وبين ما يحب وما يكره أو قل باختصار بين الحياة والموت : حياة يريدها حرة عزيزة الجانب وموتا يراه نهاية فى التضحية والاستبسال وحفظ الجماعة من الهلاك القومى ٠ ونرجع بهذا الى موضوعنا الاساسى ، اذ المقصود من الرسوم التصميمية أن تطفح ، بعد ، بالتفاصيل والاوصاف والالوان ؛ ونقول أن البطولة الجزائرية حسبما تظهر فى شذرات الادب العربى المعاصر ، بطولة تتعدى الخطوط الموجزة والهياكل النظرية لتحفل بالواقع ومثاثره – والامة كذلك ؛ ولنا فى اشعار احمد المختار الوزير التونسى ومحمد صالح باويه الجزائرى وفى قصة عثمان سعدى الدليل الكافى والحجة الساطعة تكسوهما قريحة هؤلاء الادباء وايمانهم حماسا فى المعنى وجمالا فى العبارة ، وكأن الالهام المتقد الذى يشع من محيا الجزائر الاليم الوقور قد مس ثلاثتهم فجعلهم يدركون على السوية – ومن غريب المصادفة – ذلك السر الذى أصبح المحرك الاول لبطولتها وهو الحياة ، الحياة القومية والحياة عبر الموت ورغم التنكيل ٠ يقول مختار الوزير فى حديثه عن الفتاة الجزائرية المجاهدة :

وظلت تذكر اخوانها … تغالبهم زمرة باغيه
وتبدو جماجمهم حولها … مبعثرة فى الثرى ثاويه
وتذكر قتلاهم بالجبال … وريحهم والدما الجاريه
وتذكر ايمانهم بالوجود … وتذكر غايتهم ماهيه
فتأسى وتنهض مشبوبة … كأن للهدى بعثت داعيه
تريد الحياة وما فى الحياة … من العيش فى نعمة راضية
تريد الحياة وما فى الحياة … من الخلق والقوة البانيه
تريد الحياة وما فى الحياة … من المجد والعزة الساميه

ويقول محمد صالح باويه :

احس ، احس دبيب الحيــاة
يمزق ليلى وليـــل الرعــاه
ويغــزو وجودى فى خيمتى
وفى حيرتـــى
وفى خطواتـــى
الى أمــلى ··· الى مصرعـــى

· · · · · · · · · · ·

صدى أغنياتى صدى امنياتـــى
تبوح بــه طلقة المدفـــع
وانى احس
ايا طفلتى
احس الحياه
تبارك قومى برغم الطغاه

وفى الاخير يقول عثمان سعدى بلسان بطله الفدائى الذى يشخص الثائر الجزائرى فى موقفيه المتكاملين : بذل النفس لنيل الحياة « وصعدت جانب الوادى « فى خفة ، متسللا وراء الصخور ، كان دافع المحافظة على الحياة يدفعنى تلقائيا « الى اتخاذ كل الوسائل الى النجاة من رصاص الفرنسيين ، لاننى أو مــن « كما يؤمن أى جزائرى ان الثورة فى حاجة الى كل جزائرى ، وخاصة اذا « كان ثائرا ، وكما قال احد قادتنا : نحن ثرنا لانموت وانما لنحيا ، فموتنا « حياة ··· ان كل فدائى يستشهد سيوفر باستشهــاده عشرات الانفس « وحياة أفضل لشعب بأسره » وهذا معنى جديد ذو بال من معانى البطولة الجماعية · واذا امعنا النظر فيه ، رايناه يفيد كذلك انتعاش الكيان الاجتماعى اثناء الجهاد وقبل النصر التام ، وقد راعنا فى الجزائر منذ خمس سنوات اندفاع الشباب خاصة وارتقاؤه وتدرجه من حضيض اليأس والهوان الى قمم الرجاء والعزة ، وكان بالامس مغصوب الامانى والكرامة ، يعيش على هامـش الحياة ، تذهب اعماله سدى ويذهب دمه هدرا ، فأصبح بفضل كفاحه كمن بعث من جديد رغم الاخطار والويلات ؛ ولكن هى الحرية الهيجاء التى صار يرتوى منها مرها وحلوها ، والاستماتة المثلى ، وليست كحياة الذل والخوف ؛ والجهــاد الشريف الذى يصل الحاضر بالمــاضى ويتطلع حثيثا الى سبل الغــد وما وراءها من نعمة ونعيم · حقا ان فى حياة الشباب الجزائرى اليوم لعبرة وقد غدا يركب للمصاعب كل مركب بحيوية كانها اعيدت من جديد وايمان فذ كــاد ، قبل ، أن يحــول الى قنوط · واذا كان من شأن البطولة أن تنهــج للشباب خطة الاقتــداء ، فان لمثاليتها فى صميم الشعب ومختــلف طبقــاته

وأعماره ، عملا فسيح المدى ، يشفى من الضجر القاتل ، ويفتل اسباب التضامن فى عمق الاعماق ، ويرجع بالافكار المبعثرة الهائمة الى سبيل الجهاد المشترك والمآثر المشتركة والآلام المشتركة لاسيما ولكل من المجاهدين والفدائيين والمسبلين عرق وثيق يربطه بعائلة او جماعة قروية ، مهنية من ءالاف العائلات والجماعات فى سائر البلاد الجزائرية، وصلة روحية تاريخية دموية تربطه بأسرتى المغرب الاكبر وبالعالم العربى قاطبة ٠

وفى قصة عثمان سعدى التى اشرنا اليها المثل البليغ لتلك الخطة المعنوية التى أنقذت الثورة الجزائرية بفضلها جموعا وافرة من الشباب فالبطل الروائى شاب فى العشرين من عمره سبق له ان تضلع من التردد المزمن الى المعاهد وملازمة الحانات ثم اندلعت الثورة وهو فى حالة الاضطراب والتيه ، لا يدرى ما يعمل ولا يدرى بمن يتصل لانخراطه فى المقاومة ، وارتبك عليه الامر وكاد يحتقر نفسه ومجونه اذ « الخاوة » مصرون على نزع البغى والفساد من احياء قسنطينة العربية ؛ وتصور لنا القصة بالتدقيق شيئا من ذلك الانقلاب الاخلاقى النفسى الذى عمد الى تطهير الشباب وتزكيتهم بالعمل المفيد وروح التضحية ٠ وكثيرا ما يروعنا موقف البطل وهو ينتظر انخراطه فى صفوف الفدائيين ، فييأس منه لطول الاجل ، ثم يبتهل ويغشيه الحماس عندما يرضى عنه « المجلس العسكرى الاعلى » فيختبره فى عمل خطير يكون فاتحة شديدة المراس ، رهيبة ، فى طريق الجهاد ، ويكون ، بالاحرى ، نوعا من الابتلاء تمتحن به صلات الرحم والضمير معا ٠

وزيادة على ذلك ، فان البطولات الجماعية التحررية ، بمقتضى الظروف التى تجعل منها قيما محلية لا هوادة فيها و لادلال ، تحتاج الى جهاد أبناء الشعب كافة ، رجالا كانوا أو نساء ؛ ولا جدال فى أن الامر العجيب الذى امتازت به الثورة الجزائرية من ناحيتها الاجتماعية ، هو كفاح الفتيات واستبسالهن واقبال النساء عامة وحتى العجائز على المشاق والاخطار فى مجال ربما تكل دونه عزائم الرجال ؛ والسجون والمعتقلات المخصصة « للجنس اللطيف » تشهد بذلك ، بقطع النظر عن ضحايا القمع والتنكيل ٠ ومن الغريب المستحسن (وهى ميزة من مميزات الفروسية واللياقة العربيتين !) ان اكثر الشعر الذى قيل فى الثورة الجزائرية عن لسان شعراء العالم العربى قد أوحته مآثر نسائنا المجاهدات ومحنتهن القاسية ٠ هذا الشاعر العراقى عبد الكريم الدجيلى نختار من قصيدته الطويلة الابيات التالية :

٠٠٠ والمخلصون كمثلها	فى النائبات هموا قلائل
فتقحمت مسوح الجها	د بجاحم والموت ماثل
وترجلت عن فكرة	ان الغوانى لاتقاتل

عاشت بلاد انت في ساحتها رمز المناضل
سلمت يداك فقد تجمع فيهما محل ونائل
كف تهزين الوليد بها وأخرى للقنابل

وهذه الشاعرة اللبنانية زهرة الحر تشيد باخواتها الجزائريات وتنعر لهن وهن

يتلقين سياط الظالمين
شامخات الرأس عزما ويقين

وهما مثلان من بين الامثلة العديدة ٠

ومهما كانت بطولة العصر الحاضر فانه لايسوغ لنا نسيان مافاتها ، والجهاد واحد كأنه لم ينقطع منذ 1830 رغم الفتور الذى اعتراه بضرورة الحال ، فغير أوضاعه مدة طويلة ٠ ثم حانت عودة الروح للشعب الجزائرى الذى طالما جعل الاستعمار من بلاده فى القرن الاخير ميدانا لاقسى حرب عرفها التاريخ آنذاك ، وجعل هو منها مضمارا لبطولة لم تذهب تعاليمها هباء اذ أنها امست تغذى الاجيال جيلا بعد جيل ولو بصفه مبهمة تارة ومتيقظة تارة الحدس فيها واليقين سيان ، والاسطورة والذكرى متداولتان ، وعلى القارىء ان يدرك ما فى هذه البطولة وتلك من الام ومحن تشيب لها الوليد وتدمى لها القلوب ؛ فليست مجرد اعمال حربية تثير النخوة والحماس من دون ان تشوبهما مرارة وشجون ٠ وكثيرا ما تتظاهر لنا فى الشعر العربى البطولى مسحة من الزهو وعدم المبالاة بالعذاب النفسى ، غير ان الحقيقة خلاف ذلك ، يعزى كتمانها بالعفاف والاحتشام تارة ، وبالتصلب الذى يتعمده صاحبه ، طورا ، وان فرضنا مثلا ، ان شاعرا من شعراء الاندلس الفرسان نوه ببطولة قومه أيام الهجمات الاسبانية الجارفة المتدفقة على دويلات الطوائف ، فانه لم يسعنا فى الغالب ، معرفة الاضرار والمصائب التى نزلت بالمسلمين يومئذ لولا المراثى وبالاخص تلك القصيدة الرائعة المؤلمة التى كتبها الشاعر الرندى استنجادا بالسلطان « بايزيد » التركى وحثا على نعرة الاسلام لبنيه المضطهدين فى الغرب ، كما ان فخريات الامير عبد القادر وحماسياته لاتنبىء مباشرة عن المأساة العظيمة التى كانت تحيط بشعبه من كل جانب ، الا أنه استنجد هو الآخر بالخليفة العثمانى فى عصره وأخبره عن حالة الجزائريين وحاجتهم الى التاييد فى قصيدة يقول منها :

فالمسلمون بأرض الغرب شاخصة أبصارهم نحوه يرجون اقبالا
كم ساهر يرتجى نوما بطلعته وحائر يرتجى للحزن تسهالا

ولكن اضطرت الجزائر للكفاح منعزلة منفردة فاوجدت اسباب جهادها بالكد والغناء ، وأخرجت من بين جماهيرها رجالا أشداء صاروا يقتدون بأميرهم ورفقائه الابطال وكلهم فى عنفوان الشباب لم يتجاوز كبيرهم الرابعة والعشرين من عمره وقد سبق لهم ما سبق من ابتلاء الصعاب وممارسة الاعمال ذات البال كالفروسية وطرد الوحوش وشد الرحال لطلب العلم والسياحة النائية المتعبة ، وربما الوقوف الجرىء فى وجه الحكام المفسدين مع توفر الحرية واكتمال الصحة والرخاء فى العيش غالبا والاعتزاز بانتسابهم الفطرى البديهى الى العرب والاسلام ، وعلى مثل هذا كان الامير والكثير من قواده العسكريين كمحمد البوحامدى وأحمد بن سالم والبركانى ومحمد بن علال بن على مبارك وغيرهم ، وان نذكر الابطال الذين خلدهم تاريخ الجزائر يبادرنا فى أول وهلة ذكر ابن علال وهو الشاب المثرى الذى تنازل عن أمواله الطائلة وحظوته الاجتماعية الممتازة بين قومه فى ربوع « الساحل » بناحية « القليعة» ليلتحق بالمجاهدين ، وسرعان ما يستعمله الامير عبد القادر على ولاية واسعة بقرب الخط النارى فى غربى « متيجة » ثم على عاصمة « مليانة » وسهول « شلق » ومضايق « وادى الفضة » الاستراتجكية وسط المعمعة والزحاف ، وكان طلب ابن علال من أهله قبل مفارقته اياهم ان يصلوا عليه صلاة الغائب ويعتبروه كالمفقود نهائيا . وحرص الفرنسيون حرصا شديدا على محاولة اغرائه بالمال والمناصب الفاخرة وكانوا يعلقون رجاءهم فى هزم الامير وانهاء الحرب بموت محمد بن علال خاصة ، أو على الاقل باستسلامه أو أسره ... ولكنهم حاولوا عبثا . وكتب له الاستشهاد بوقعة « سيدى يعقوب » سنة 1843 وكان أظهر فيها من ربط الجأش والبطولة الجبارة ما اضطر العدو الى المثول بصفوف الجيش أمام جثته ، اجلالا له بعد موته ، واذا نظرنا الى ماثر غيره ، رأينا فيها العجب العجاب ، يوم كان قواد الكتائب والبركانى نفسه ، مع علو مرتبته ، يقدمون على حصر المدن المحتلة ويهاجمونها بدون مدفعية ، تحت نار العدو المتطاير العنيف ، لا تفصلهم عن مشيدات الافرنسيين الحربية الا بضعة أمتار ، يوم كانت تبسط سجلات الشرف ، فيتسابق اليها المتطوعون يقيدون فيها أسماءهم قبيل الهجوم المستميت على المدافع الضخمة المدوية ، لاخذها من أيدى العدو ، وكثيرا ما كانت تؤدى بهم بسالتهم تلك الى شبه انتحار ، يوم كانت تجرؤ الفئة القليلة من الفدائيين على دخول ثكنة فرنسية وهم يتظاهرون بالدروشة ويخفون السلاح تحت اسمالهم البالية ، فلم ينج منهم أحد وقد أوقعوا بالعدو ما استطاعوا ، يوم كان الرجل منهم يأبى ألا أن يقتل رميا بالرصاص بعد أسره ، فينفذ فيه الضابط الافرنسى الامر قائلا فى تقريره العسكرى « قتل فلان بطلب

منه وبحجة أنه ليس من الذين يستأسرون » ، يوم كان يعلق بعض المجاهدين التمائم و « الاحجبة » ، لا في سبيل النجاة من الموت ، بل رجاء في الاستشهاد وتشوقا اليه ، ومتى أمعنا النظر في هذه الاحداث كلها ، أمكننا القول بأن اقبال الجزائريين على الموت في الحرب الاولى ، بهذه الصفة الشاذة ، كان كثيرا ما يطرأ عن أسباب شتى ، دينية ووطنية ونفسية منها الجهاد المزدوج المتناهي الى أقصى حد ، طلبا لحسن الجزاء ويقينا منهم بأن الاسلام يعلو ولا يعلا عليه ، فالموت في سبيل الدفاع عنه اعلاء لشأنه وحفظ لحماه ، ومنها التمتع العريق بالحرية ونخوة الاستقلال ، الامر الذي يدفع بصاحبه الى الـذود عنهما وهو المتشبع بحيويتهما وروحهما وبالوفاء الى أرض الاجداد ، لا يهنأ خاطره اذا تخيل مثالها الى العبودية وفقدان العزة ، ومنها قسوة العدوان الفرنسي والجرائم البشعة التي ارتكبهـا الغزاة ، والتخريب والتنكيل بالابـرياء واغتصاب الاراضي واختطاف الاطفـال المنهجي واعتبار النساء كالغنيمة يوزعن غالبا عـلى الجنود بعد الغـزو والنهب وطرد العشائر طردا والسعى في ابادتها بكل وسيلة وما نتج عن هذا وذاك من مشاعر وانفعالات في قلوب الجزائريين وأعمالهم وبالاخص عقد العزائم على ردع الاذى واقتحام الشدائد والمخاطرة بالنفوس ، وقد أصبحت البلاد ميدانا واسعا لحرب ضروس قلما ينجو من شرها القوي المسلح فبالاحرى الضعيف الاعـزل ، ونضيف اليها كل ما تعـود عليه الرجل الجزائري المغربي العربي من صلابـة الجانب في العراك والزهد في الحياة والصبر والاستهانة بالموت وابـاء الضيم وروح التضحية ، ولنا في « يوميات » بعض القواد الفرنسيين انذاك الشهادات الكثيرة على مثاثر البطولة التي لاحظوها رغم أنفهم عند الشعب وقادته وأمـيره الاغر ، عبد القـادر بن محي الديـن ، وطالما راعتهم من هذا الاخير – ولا تزال تروعنا – انسانيته الكريمة المصحوبة بشيم الفروسية وصدق الايمان . ومن فرط الاقدام ومزيد الاستبسال اللذين عرف بهما في ساحة الحرب ، كان يفتتن الجنود الفرنسيون بمطلعه ويكاد يعتريهم نوع من البهت والاندهاش ، وهـو الرجل المعتدل القامة ، النحيف البنية ، الوديع السيماء الا أنه كان لشخصيته تأثـير فعال وسطوة معنوية يبعثان الحماس في قلوب ذويه والذعر في نفـوس الاعداء ، وان كان يعذر حصر مكارمه وفعاله ، فان عشرات الكتب التي ألفت عنه في مختلف اللغات مع احترام الواقع غالبا والتنويه بفروسيته ، لا تفي بالموضوع كله وينقصها ما في قصائد الامير ورسائله ومخطوطاته ومدائح شعراء العـامة كالطاهر بن حواء وغيره ، من الحقائق والمعاني الباطنة والظاهرة ، وقد ضـاع الكثير منها أثناء الغزوات وتخريب المدن ، ولكن الشيء اليسير الذي وصل الينا يدل الدلالة الكافية على الرجل ومثاثره ، ويشير الى مدى الاعتبـار والتقـدير

والاعجاب التى حظى بها حتى من طرف أعدائه ، وكيف لا وهو الذى طالما سعى فى التلطيف من أشرار الحرب وتحسين حالة الاسرى واطلاق سراحهم بدون عوض ، ومن جملة ما قام به من كريم الاعمال أنه أرسل يوما الى الاسقف Mgr. Dupuch معيزا حلائب تتبعها جديانها ، لتغذية أيتام الجنود الفرنسيين ، وإذ اشتهر الامير عبد القادر بشجاعته وحلمه فانه اشتهر كذلك بتواضع نادر الوجود ، كان كثيرا ما يدفعه الى ايثار الغير على نفسه فى الاسر الشاق بحصون فرنسا ، حيث كان يتزهد فى العيش لكى يتأتى له أن يسعف أصحابه بما لديه من ضروريات الامور ، ويمتنع حتى من التدفئة فى أيام الشتاء القوارس ولياليها ليتبرع بحصته من الوقود على رفاقه الاسرى ، واما عن امارته وأيام جهاده فلا تسأل ، الشيء الذى جعل أقلية الاقطاعيين وأذناب الاستعمار الخونة المتغطرسين ينقمون على سلوكه مع الشعب ومعاملته اياه كأحد أبنائه والانصاف للجميع والسهر على المصالح الشعبية وهى كلها من خوارق الاعمال وأعظمها شأنا فى عصره وان كنا لا نستغرب مثلها فى أيامنا هذه لتطور الافكار السياسية الى حد ـ والحق يقال ـ نسبى غير مقنع ، واذا نحن تتبعنا فى حياة الامير عبد القادر جميع العناصر والمظاهر التى تتألف منها بطولته ، فلا محالة أن سلوكه هذا السلمى الاخلاقى ذا الورع والصلاح فى ظروف الطغيان والعنف وأحوال السؤدد والرئاسة ، لجدير كذلك بالبطولة ، مكمل لصفاتها الاخرى من شهامة وبذل للنفس وعزم واستبسال وكان له فيها ، كما لا يخفى ، الحظ الوافر ، وقلما صدق شاعر فى فخرياته صدق الامير وهو يشيد بقومه ورفاقه ويذكر أيام نصره ، ونأسف كثيرا لكوننا لم نستشهد بقصيدته الطويلة التى بعث بها الى بعض أجناده وكانوا قد التجأوا الى « وادى سبأو » تحت جناح القائد أحمد بن سالم بعد معارك حامية ومتاعب قاسية ، فطلب الامير عبد القادر من خليفته أن يحتضنهم ويرفق بهم ، والقصيدة كلها تشوق اليهم وتنويه بجهادهم وتسلية ، نذكر منها البيت الوحيد الذى حضرنا وهو :

يوم الوغى يوم المسرة عندهم

وفى الصباح مشوا له بتهلل

ونقتصر فى حالة الاسر والفاقة ، (مع ابداء الشكر للهادى حمو) على القطعتين اللتين أدرجهما فى مقالته عن « أناشيد البطولة » (1) ، يقول الامير عبد القادر فى أولاهما :

ركبنا للمكارم كل هول — وخضنا أبحرا ولها وحال (2)

اذا عنها توانى الغير عجزا — فنحن الراحلون لها عجال

---

(1) مجلة «الفكر » ـ ديسمبر 1956

(2) اقرأ : وحال عوض رجال

ســوانــا ليــس بالمقصــود لمــا	ينــادى المستغيث : ألا تعــالوا
سلــوا عنــا الفرنس تخبرنكـم	ويصدق اذ حكت منهــا المقــال
فكــم لى فيهــم من يــوم حــرب	بــه افتخــر الزمــان ولا يــزال

وكــان فى ودى لــو أتيحت لى الفرصة لذكــر قصائد أخرى ، أما القطعة التى ستلى ، فانها تعبر للغاية ، معقلة أبياتها ، عن تلــك الخاصة العجيبــة من خصائص الجهــاد الذى قــام به الامير طيلة خمس عشرة سنــة ــ ولا سيما فى السنوات الاخيرة ــ وهى تنقله السريع المفاجىء فى جميع أنحاء الجزائر وكأن له قابلية الوجود بكل مكان وبكل معركة ، وكثيرا ما انبهر المؤرخون من ذلك وغدوا يعددون جنود الفرنسيين الذين أضنتهم المشاق وأهلكتهم الحرب بدون قتــال وهم مجدون فى اللحــاق بالامــير ، يتوقعون بروزه بينهم أو يرجــون اقصاءه عنهم وسرعــان ما يأتيــهم من حيث لا يشعرون ، فيتخلل صفوفهم الكثيفــة و « طوابيرهم الجهنمية » ــ حسب تعبيرهم ــ ويضرب ضرباته القاسية ثم يعود ادراجه متنقلا فى الفضاء الجزائرى ليل نهار ، وهو اذ يقول :

سلى الليل عنى كم شققت أديمــه	على ضامر الجنبــين معتدل عــالى
سلى البيد عنى والمفاوز والــربى	وسهلا وحزنا كم طويت بترحــالى
فمــا همتــى الا مقــارعة العــدى	وهــزم لأبطال شداد بأبطــالى

اذ يقــول هذا فانه لا يبالغ وقد وطئت سنابك خيله أدنى بقعــة من أرض الجزائر تقريبا

وفــــى الختام يجب على الباحث فى البطولة العربية العصرية ملاحظة أمر خطــير جدا وهو أن تلك المئاثر الساطعة كانت ، يا للاسف ، نتيجــة صراع مزعج ، أسفر فى الماضى ولا يزال يسفر فى الحاضر عن ملاحم ومجازر نــادرة المثيل ، وقل ولا غرو ان عدد الشهداء فى حروب الجزائر منذ 1830 يكاد يناهز المليونين بقطع النظر عمن قضى عليهم الاستعمار بالعسف والجــوع والدواهى المقصودة والجوائح المدبرة ٠ اذن ، فبكم تعاوض بطولة هــذا ثمنها ؟ ويزيدها خطورة ، انها ليست من الاعمــال التىْ يستغنى عنهــا ، فهى حتمية ضرورية كغريزة البقاء وكنفس الحــرية ، ويحين عاجلا ان شاء الله أوان الافصاح التــام عما أحرزته الثورة الحالية من غرر وأمجاد وان كان قد شهر منها النصيب الكافى وعرف من بين شهدائها وأبطالها الحشد الوافى ٪

اقــرأ فى العــدد المقبل لمصطفى الاشرف
البطــولة العــربية وعــوامل نشــأتهــا
بــين الــواقــع والمثــاليــة

النشيد العظيم

بقلم نور الدين صمود

« الى الذين سيطلعون فجر يوم النصر ··· الى الذين سينبثق من عزائمهم نور الغد العظيم ··· »

الحنين الدافق الفياض فى قلب الغريب
بل قلوب الغرباء
ـ كأغاريد الطيوب
فى بساتين الرجاء ـ
لثرى أرض الوطن
فى تهاويل المحن
لم يزل يدعو ··· ويدعونى اليك
وبسمعى صوتك الباهت مشلول النداء
كمصابيح الضياء
فى سناها تتراءى الكبرياء
غير انى لا أجيب
وبجنبى وجيب
وحنين للقاء
كالحنين الدافق الفياض فى قلب الغريب
بل قلوب الغرباء
لثرى أرض الوطن
فى تهاويل المحن

∴

أنت يا معقل عز كسر الفأس لديه
ما الذى أشدو به فى غمرة النصر وفى جو البطولة ؟
أنت أعجزت البطولة

وتجـــاوزت الفـــــداء
فـاذا ما نازعتنــي الـروح للشـــد وتجـاهلت النــــداء
وتنـاسيت الحنـــين
وتـرنمت بصمت وسكـــون :
(انهـا أعظـم قصـة
يعجـز الشعـر لديهـا
والتى قـد عجـز الفـأس على تحطيمهـا
هـل سيعليهـــا الغنـــاء !؟)
ثـم قـاومت النـــداء
ذلـك الصـوت العجيب
كالحنـين الدافـق الفيـاض فى قلب الغـريب
بـل قلـوب الغـرباء
لثـرى أرض الـوطـن
فى تهـاويـــل المحـن

لـك منـى ألف غنـــوه
يصـدق القـلب لـديهـــا
والنغـــــم
غـير انــي ســوف لا أقــوى عليهـا
والقــــلم
ســوف لا يقــوى عليهـا
والالــــم
فـاذا ما نازعتنى الـوح للشدو سأشــدو فى سرور
ســوف لا أبكـى عليهـا أو لديهـا
رغـم أطيـاف الظـــلام
والظـــــلم

(غـدك) المشـــرق أحلـى
من تصـاويـر خيـالـك
أنت يـا أبهـى « جميـلة »
الغـد الـوضـاح أحلـى ...
مـن جمـالـك

وأنـا أهـوى الجمـال ...
والذى يهـوى الجمـال
غـير انـى أعبـد (الآتـى) القـريب
وهـو أطيـاف حبيب
لمحت عينـى على البعـد ابتسـامـة
ووراء الغيب أحسست سـلامـه
وتسمعت خطـــاه
وتنسمت شـــذاه
فهـو طيف من اللـه
يعبـر « الآتـى » الى يـوم قريب
فى خطى عمـلاقة تـذكـى اللهيب
سـوف نلقـاه « غـدا » ... عمـا قريب
فلتكـونى أنت (اللآتى) الفـــداء
للغـد الآتـى ... لاطيـاف الحبيب
انـه طيف ســلام
وأهـازيـج حمـام
ذلـك القـادم من غـور الغـد
سـوف يمحـو العـار والـدمع النـدى
ويشيـع الحب فى تلـك القمـم
قمـم (الاوراس) من أرض الجـزائـر
حيث يستحـلى الالـم
كـل جبـار أبـى ... كـل ثـائـر
روحـه فى كفـه يمضى بهـا عبـر الحتـوف
تعـس المـوت الـدنيـىء المحتـــوم
طالمـا أردى الالـوف
والصفـــوف
والغـد المشرق رغـم المـوت أحلـى ...
من تصـــاوير الخيـال
رغـم آلام الليـــالى
انـه بسمـة طفـل وصبيـــة
انـه خفقـة أرواح أبيـة
حلم شيخ قبـل أن تلقـاه أهـوال المنيـه
ذلـك (الآتـى) الحبيب

ومواسى امسك الدامى الخضيب
سوف لا يأتى اختيار
فلتفجره قلوب عربيه
أشرق المجد على آمالها
وسرى التائه فى لألائها
ودعاها الثار والحقد الدفين
اذ علا فى سمعها صوت الانين
ذلك الصوت الذى قد أزعج القلب الحزين
تعس الوحش الذى لطخ أحجار الديار
بدم الاطفال سيالا واشلاء الكبار
بالخدود السمر ... بالشعر الطويل
كان ينساب على خصر نحيل
بجفون كم تغنى الشعر فى لألائها
ومشى القلب على أضوائها
كل ما كان مع الامس جميل
أصبح اليوم من الهول قبيحا وذليل
شوهته كف عملاق مريض
يكره النور ويشتاق الحضيض
لعن الوحش البغيض
عاشق الموت وخفاش الظلام
طالما روع أسراب الحمام

*

غير أنى قد لمحت النصر فى عين فتيه
شع فيها الحقد جبارا ... فما أقسى المنيه
رمق الآفاق فى عز وفى روح عربيه ؟
وعلى كفيه لاحت بندقيه
هل ترى يستطلع (الآتى) بروح عربيه ؟
أم ترى يطلعه مما وراء الابديه ؟

*

الغد العملاق ما أروع فجره
هو كالسيل اذا ما زعزع السد وثار
نهر فيروز وخصب وثمار
وينابيع من الخيرات ثره

الأدب الجزائري

بقلم عثمان الكعاك

منــــذ ثلث قرن ـ فى سنة 1926 بالضبط ـ أصدرنا كتابنا « موجز التاريخ العام للجزائر » • وهو استعراض للحضارة الجزائرية أكثر منه تاريخ وقائع وسرد حوادث وتجارد ملوك • وقصدنا من تأليفه اثبات الشخصية الجزائرية الممتازة ، الشخصية الجزائرية السياسية والحضرية والثقافية والفنية • ويقيننا أن قارىء هذا الكتاب ينتهى منه وقد استقر فى نفسه الايمان بوجود الشخصية الجزائرية كدولة وكحكومة وكشعب وكأمة وكثقافة وكأدب وكفن ، وبجملة مختصرة كحضارة قائمة بذاتها لها اشعاعها على حضارات البحر المتوسط •

كتبناه يوم كان الكثيرون يعتقدون أن الجزائر « مصطنع سياسى » و « خلق فرنسى » وأنه بلـد لم تكن له حدود خاصة ولا تسكنه أمة وليس به شعب وما له حضارة خاصة ولم تقم به دولة ولم تنظم فيه حكومة • هذه فكرة استعمارية وارجوفة ابتدعتها مدرسة الجزائر التاريخية لغاية فى نفس يعقوب •

وقد قرأنا يومئذ مئات الكتب الفرنسية عن تاريخ الجزائر فكانت كلها تثبت ـ أو تحاول أن تثبت على الاقل ـ أن الجزائر انشاء فرنسى أنشاه الفرنسيون « من البيضة » أو « من العدم » •

وكنا نطالع المئات من المصادر العربية فنراها تثبت العكس •

ويعسر التسليم جدا بأن قطرا من الاقطار يعيش ستين قرنا بدون حدود ولا دولة ولا حكومة ولا قانون ولا نظام ولا حضارة ولا أدب ولا فن ولا ثقـافة ، الواقع ينفى ذلك والمنطق يأباه والمشاهد يقيم الدليل على نقيضه • ولا يعشش مثـل هذا التفكير الملتـوى المنحرف الا فى أدمغة مريضة عمياء البصر عشواء البصـــيرة •

ونلخص فى هذه العجـالة تاريخ الادب الجزائرى لا عـلى معنى الاستفاضة والاستيعاب ولكن كنماذج صالحة لتحصل منها صورة نقية فى الذهن •

١ ـ **الادب البربرى بالجزائر** : البربر أقدم سكان القطر الجزائرى ونظامهم هو من أقـدم النظم الجمهورية فى العـالم • وخطهم سابق للخط الهيروغليفى

المصرى ، وأدبهم سابق للادب اليونانى والادب الاغريقى . فمسرحهم يرجع الى فجر التاريخ . وقد أسس الملك الجزائرى يوبا الثانى أول معهد للتمثيل والموسيقى والنحت والتصوير وذلك بمدينة شرشال فى القرن الثانى قبل المسيح ، قبل أن تؤسس باريس بقرنين . ودون بربر الجزائر أخبارهم بالصور والخطوط على صخور الجبال طوال مئات الاميال قبل أن يحرر الفراعنة أخبارهم على المصاطب والمسلات وشيدوا أهرامهم قبل أهرام سقارة والجيزة . وألف يوبا الثانى أول دائرة معارف عامة عرفها البشر وصنف جغرافية لبلاد العرب . وصنف ماسينسا ويوغرطه كتبا فى أنساب البربر وتواريخهم نقلت الى العربية فى بيت الحكمة بالقيروان واعتمدها ابن خلدون لوضع كتابه عن البربر . وبين المؤرخ البربرى يوبا الثانى وأول مؤرخ فرنسى أربعة عشر قرنا . وبين أول دائرة معارف جزائرية . وهى التى وضعها يوبا الثانى . وأول دائرة معارف فرنسية ، تسعة عشر قرنا .

2 ـ **الادب الرومانى بالجزائر** : أنجبت الجزائر البلد الثقافى الخصيب مئات الرجال فى العصر الرومانى ألفوا باللغة اللاطينية يشار اليهم بالبنان . ويكفيها فخرا انها موطن أكبر روائى لاطينى . وهو أبوليوس الذى ولد بمدينة مداوروش وتعلم بقرطاجنة ودرس الحقوق بروميه ورافع بطرابلس وألقى المحاضرات الفلسفية بقرنى (سيرين ـ الشحات) العاصمة اليونانية الكبرى ببرقة وبجامعة الاسكندرية . وألف روايته الحمار الذهبى وصنف كتاب ازهار الفلسفة وفصوص الحكم وكتاب النوادر والحكايات الذى استقى منه لا فونتين الكثير من حكاياته منها الغراب والثعلب والذئب والخروف . ويكفى الجزائر فخرا أنها أنجبت القديس أوغوستينس أكبر مفكر عالمى فى أعالى القرون الوسطى وأكبر خطيب كنائسى وواضع الكثلكة . ولد بمدينة تاغاست (سوق اهراس) ، ودرس بقرطاجنة وولى اسقفية عنابة (بونة) وألف كتاب البوح وكتاب مدينة الله (يقارن بجمهورية افلاطون والمدينة الفاضلة للفارابى) وله رسائل من الاهمية بمكان وهو المصدر الاول للتصوف المغربى .

3 ـ **الادب العربى** : بدأ الادب العربى على عهد الدولة الرستمية التى نشأت فى القرن الثالث الهجرى وعاصرت الطولونيين بمصر والاغالبة بتونس والادارسة بالمغرب والامويين بالاندلس . وقد كان الكثير من الائمة الرستمين شعراء وأدباء وخطباء وفقهاء . وأكبر شاعر جزائرى فى هذا العصر هو أبو بكر بن حماد .

وظهرت شخصية الادب الجزائرى على عهد الحماديين ملوك بجاية من القرن الرابع الى القرن السادس . ونحن نتعرف الحياة الثقافية فى هذا العصر سوى

فى حلقات التدريس أو فى نوادى العلم والادب أو فى أشخاص نبغاء الادب والعلم والفن من كتاب عنوان الدراسية فى تاريخ علماء بجاية للغبرينى أو من كتاب تعريف الخلف برجال السلف للحفناوى وهو كتاب جليل جدا • وفى بجاية ظهرت الارقام العربية فى الحساب وظهر الجبر وانتقلا من هنالك الى مدينة جنوة بايطاليا فعرفهما الاوروبيون من هناك • وكانت بجاية عاصمة علم عالمية فقصدها الاوروبيون للتعلم بها ومنهم الفيلسوف الاسبانى ومجدد العلوم الاوروبية رامون لول • ومن أشهر الكتاب فى ذلك العصر ابن مخشرة أكبر كتاب رسائلى ظهر بالمغرب ، وقد انتدبه الموحدون لدواوينهم فكان نابغة الكتاب ومدير قوانين الدواوين • وقد نشر رسائله القيمة لاوى بروفنسال •

وانتهت دولة بنى حماد ببجاية بظهور دولة الموحدين التى وحدت المغرب • فقامت يومئذ دولة بنى زيان أو دولة بنى عبد الوادى بتلمسان ودامت من القرن السادس الى القرن الحادى عشر عند ظهور الاتراك • وقد أنجبت المئات من الشعراء والادباء والكتاب والمؤرخين والعلماء والفلاسفة والمفسرين والمحدثين • فأشهر شعرائها ابن خميس والطلاسى وأبو حمو موسى الثانى الذى ألف كتابا جليلا فى السياسة قبل أن يكتب ماكيافيل الايطالى كتابه السياسى « الامير » بقرن • وأكبر كاتب وشاعر ومؤرخ فى هذا العصر أحمد المقرى (أنظر تأليفنا عنه) وهو من أكبر كتاب الاسلام على الاطلاق • ومن أكبر المتصوفين الغوث أبو مدين ، ومن أكبر المفسرين عبد الرحمان الثعالبى ، ومن أكبر الفقهاء ابن مرزوق ومن أكبر النوازليين الونشريسى ، ومن أكبر الحسابين البونى ، ومن أراد معرفة ذلك فليراجع أنوار نيسان للمقرى أو البستان لابن مريم أو بغية الرواد ليحى ابن خلدون أو الدر والعقيان للتنسى •

ثم ظهرت دولة الاتراك فى القرن العاشر • ونبغ خلالها جماعة ، منهم عبد الرحمان الاخضرى الفيلسوف الكبير ، ومنهم محمد السنوسى مؤرخ العقائد وواضعها ، ومنهم محمد بن على السنوسى الكبير واضع السنوسية كطريقة ودولة ومنقذ الصحراء وليبيا من الاستعمار الاوروبى ، ومنهم على الخصوص الامير عبد القادر بن محى الدين مقاوم الاحتلال الفرنسى والشاعر الوطنى والمصلح الاسلامى الذى سبق بتصانيفه الاصلاحية جمال الدين الافغانى ومحمد عبده ، فقرر أول برنامج منهاجى لاصلاح العالم الاسلامى واستئناف نهوضه وتبيين معالم حضارته وتنقية تعاليمه السمحة وبعثه كدولة وحضارة •

وفى العصر الحاضر قامت دولة العلم والادب منذ انتهت دولة السياسة

بالاحتلال والى ان قامت دولة السياسة الجديدة بالانقلاب الجزائرى التاريخى الكبـــــير ٠

فنبغ خلالها محمد بن أبى شنب الشاعر الاديب المؤرخ ٠ ونبغ من المؤرخين الاستاذ المجاهد أحمد توفيق المدنى والشيخ مبارك الميلى والاستاذ الجيلالى يصنف كتابه شعراء الجزائر فى العصر الحاضر ٠

على أن جمهرة من الشعراء الوطنيين أججوا نار الثورة وغذوها وقد جمع ديوانهم فكان لهيبا مستعرا ٠

ومن كتاب العصر ومفكريه المرحوم عبد الحميد بن باديس والاستاذ الكبير البشير الابراهيمى الخطيب والكاتب والمفكر والشاعر والمؤرخ والاديب والعالم ممن لا تحصى مزاياه ولا تدرك سجاياه ٠

4 ـ مراجـــــع :

1 ـ ابن الصغير : تاريخ بنى رستم ٠

2 ـ سليمان البارونى : الازهار الرياضية ٠

3 ـ الغبرينى : عنوان الدراية ٠

4 ـ ابن مريم : البستان ٠

5 ـ الحفناوى : تعريف الخلف ٠

6 ـ ابن فرحون : الديباج المذهب ٠

7 ـ البونى : الدرة المصونة فى علماء بونة ٠

8 ـ القاضى عياض : كتاب المدارك ٠

9 ـ ع٠ ك٠ : بلاغة العرب فى الجزائر٠

10 ـ ع٠ ك٠ : موجز التاريخ العام للجزائر٠

11 ـ ع٠ ك٠ : أحمد المقرى ٠

12 ـ البغدادى : ابن خميس ٠

13 ـ أحمد توفيق المدنى : كتاب الجزائر٠

14 ـ مبارك الميلى : تاريخ الجزائر٠

15 ـ الجيلالى : تاريخ الجزائر٠

الأذرع السود

بقلم لمعية عباس عمارة

هيروشيما
لم تزل مأساتها تدمى الحنايا
تصبغ التاريخ بالخزى
بأشلاء الضحايا
لم يزل فى زورق الصياد فى البسفيك
اشعاع المنايا
يمطر الموت
يثير الرعب فى حلم ملايين الصبايا
لم تزل من شرعة الغاب ودنيا البربرية
بيننا بعد بقايا
أخطبوط ينفث السم
يمد الاذرع السود لامن البشرية
فى بلادى العربية
فى ذرى اليابان
فى اليونان
فى كل الزوايا
أذرع سود
تثير الرعب فى حلم ملايين الصبايا
يا أخى الانسان
يا « أثمن شىء فى الوجود »

كيف ترضى لحثالات الوحوش الآدمية
أن تهين المبدع الخلاق فى أرض جدودى
فى بلادى العربية
كيف ترضى أينما كنت
جنون الهتلرية
وجنوحا : يمطر الدنيا رزايا
ويثير الرعب فى حلم ملايين الصبايا
ألف طفل مثل (زيدون) كنوار الربيع
تشرق الدنيا على أفواههم ، سود العيون
ألف طفل مثل زيدون سيمسون ضحايا
سيغشى الاعين السود دخان
ويذوبون رويدا كالشموع
كى يدير النخب فى باريس حقد
وجنون يملأ الكون رزايا
ويثير الرعب فى حلم ملايين الصبايا

ـ بغداد ـ

من وثائق الوحدة

بقلم : **الشيخ الفاضل بن عاشور**

ست رسائل من المولى عبد الرحمان
ابن هشام سلطان المغرب الاقصى
الى الامير عبد القادر الجزائرى

الطرف الجزائرى

لما دهمت الجيوش الفرنسية بلاد الجزائر ، وهب الشعب الجزائرى للجهاد دون استباحة دار الاسلام ؛ كان فى مدينة معسكر ، من عمالة وهران شيخ من أهل العلم والصلاح ، يقوم على الزاوية القادرية هناك ، خلفا عن سلف ، وينتمى الى النسب النبوى الطاهر : من طريق اتصال الولادة بقطب الطرق الصوفية الشيخ عبد القادر الجيل المتوفى ببغداد سنة 561 • ذلك هو الشيخ محيى الدين بن مصطفى بن محمد المختار • فلم تجد القبائل المتحركة للجهاد ، من معسكر وغريس وغيرهما من البلاد الوهرانية ، من يجمع الكلمة وينهض بالامر أولى من ذلك الشيخ المبجل •

وقد قام الشيخ محيى الدين بأعباء القيادة والحكم فى منطقة واسعة من عمالة وهران • وجرت له مع القوات الفرنسية وقائع شهيرة ، زكت انتخابه للامر ، ومدت سمعته ، ووسعت سلطانه •

وعلى ضوء هذه الزعامة الصالحة ، سطع نجم أحد أبناء الشيخ محيى الدين • وهو الشاب عبد القادر ، الذى كان سنه يومئذ خمسا وعشرين سنة • وكان نابغا فى الادب ، زيادة على منزلته العظيمة فى الحديث والفقه ، وقدمه الراسخ فى التصوف •

ونظرا الى شخوخة والده وشبابه هو ، واعتدادا بما ظهر به من البطولة فى المعارك التى دارت بقيادة والده ، وأهمها معركة « خنق النطاح » بعمالة وهران• وخضوعا لنبوغه العلمى والادبى ، واستجابة الى ترشيح والده اياه ، اجتمعت

القبائل على بيعته بامارة شرعية جهادية فتمت تلك البيعة فى معسكر بتاريخ الثالث عشر من رمضان سنة 1248 • وحررت وثائق رسمية بنص البيعة على السمع والطاعة وامتثال الامر •

وكان هذا الحدث الهائل باعثا للامل فى نفوس المسلمين قاطبة ، ولا سيما فى القطرين الشقيقين : تونس ، والمغرب الاقصى ، فتباشر الناس بخبر هذه البيعة الرشيدة • وكانت منزلة الامير عبد القادر العلمية والدينية ، اقوى ضمان لتلك البشرى • فكانت المراكز الادبية والعلمية ، بالقطرين ، اشد الجهات تاثرا ، واوسعها املا ، واكملها مناصرة • فاعان ذلك على شيوع البشرى ، ورسوخ **الامل** •

ثم كانت الاحداث المتتالية بالنصر والفوز ، مصدقة للامال ، وحافزة على الجد فى المواقف •

فقد استطاع الامير عبد القادر ان يحمى الجهات التى دانت له بالطاعة ، وأن يدافع عنها القوات الفرنسية التى كانت محتلة لوهران •

ومنذ سنة 1251 ـ 1835 بعد ان نالت منه العساكر الفرنسية منالا باحتلال مدينة معسكر ، اصبحت الحرب عوانا طاحنة ، ومواقعها سجالا ، حتى كان النصر المبين باحتلاله مدينة وهران ، واجلاء القوات الفرنسية عنها سنة 1253 ـ 1837 • وهو النصر الذى انتهى بعقد معاهدة طفنة الشهيرة ، التى شمل بمقتضاها سلطان الامير عبد القادر معظم البلاد الجزائرية ، واصبح ملكه حقيقيا ، وموقفه مع فرنسا موقف الند مع الند

وفى سنة 1255 ـ 1839 اثار الفرنسيون مشاكل حول صور تطبيق معاهدة طفنة ، فكانت سببا فى معاودة الحرب واستمرت بعد ذلك المعارك غير منقطعة • وتداولت القوتان مدنا كثيرة : مثل المدية وتلمسان ، فكلاهما خرج من يد الامير الى الجيش الفرنسى ، ومن يد الجيش الفرنسى الى الامير ، غير مرة (١)

---

١) لحياة الامير عبد القادر وتفاصيل مواقعه مصادر كثيرة ـ زيادة على مصادر التاريخ العامة ـ وأهمها مصدران عربيان وهما « تحفة الزائر فى مئاثر الامير عبد القادر وأخبار الجزائر » من تأليف ابنه الامير محمد باشاط بالاسكندرية سنة 1320 ـ 1903 والترجمة التى كتبها له الشيخ محمد السنوسى فى الجزء الثالث من الرحلة الحجازية (مخطوط) ويتبعهما مصدر هام باللغة الفرنسية هو كتاب « الامير عبد القادر » تأليف الكولونيل بول آزان

الطـــرف المغــربـى :

ومن هذه الاحداث الرائعة ، كانت سلطنة المغرب الاقصى تنال حظا زائدا من البهجة والانشراح ، للمعارك المظفرة : وحظا مثله من الحرفة والاكتئاب للمعارك المنكسرة : للحمة القومية الجامعة بين القطرين ، وموقـع الجـوار ، وسيطرة السيادة العلمية الاسلامية على حاضرة الدولة العلوية : مدينــة فاس ٠ فكان من ذلك كله مدد ادبى عظيم للاميـر عبد القـادر فى النهـوض لحركاته الجهادية ٠ كما كان له من ذلك عون مادى ذو شان فى ما تمده به دولة المغرب الاقصى من الخيل والسلاح والمال

بحيث وضعت القضية الجزائرية بموضع العمل المشترك والجهد المنسق بين حركة المقاومة وسلطنة المغرب الاقصى

وكانت الخلافة الشرعية التى يضطلع بهـا نفوذ سلطان المغرب ، غير منـازع تخلع على امارة الامير عبد القادر من شرعيتها وجلالها ما يشد عضده ، ويقوى شوكته ، ويدفع عن تصرفاته وصمة البغى والتمرد التى تريـد أن تلحقهـا بـه دعـاية الاعـــداء

وكان الذى يتولى امر المغرب الاقصى ، فى تلك الساعات الحرجة ، امـــام من أفضل أيمة المسلمين وأجمعهم لثقة الامة وأتمهم ظهورا بمظهر المحافظة على الدين والعمل على احياء روحه ٠ وهو السلطان الشهير المولى عبد الرحمان بن هشام ، الــذى حكم المغــرب الاقصى مـــا بين سنة 1238 ــ 1823 وسنــة 1276 ــ 1859 (1)

فكان بما هو مشهور به من اخلاص ورشد سيرة ، وانقطاع للمصلحة العليا يهتم اهتماما فائقا بقضية الجزائر،وينظر الى الامير عبد القادر بعين عطف واكبار

وقد اكد عوامل هذا الاهتمام ان السلطان عبد الرحمان لما استولى الفرنسيون على الجزائر وعجزت القوات التركية عن دفاعهم ، تلقى بيعـة اهـل تلمسان فادخلها ونواحيها فى سلطنته وولى عليها واليا من قبله فشملت ولايته حتى مدينة معسكر ولكنه نظرا الى سوء نظـام الجيش ، وما انتشر فيـه من النهب والعبث بالامن ، بعد احتلال الفرنسيين لوهران ، اضطر الى سحب جيشه عن التراب الجزائرى ٠ ثم اشتغل بما جرى من الثورات والاضطرابات الداخلية

1) أخبار دولته فى كتاب « الاستقصاء فى أخبار المغرب الاقصى » للشيخ الناصرى ، الجزء 2 ص 173 وترجمته فى كتاب « أتحاف اعـلام الناس بجمال أخبار حاضرة مكناس » تأليف مولاى عبد الرحمان بن زيـدان ج٠ 5 ــ ص 2

فلم يمكنه معاودة السعى لانقاذ الجزائر ، حتى ظهر الامير عبد القادر واضطلع بالامر فـ « رأى أنه قد قام بنصرة الاسلام على حين لا ناصر له فصار يمده بالخيل والسلاح والمال المرة بعد المرة » (1) لا سيما وان الامير عبد القادر قد اظهر من ولاء السلطان والتادب معه ، حين تلقب بالامير ولم يقبل لقب سلطان وحين جعل دعاء الخطبة الجمعية بتلمسان وغيرها باسمه ، ما شجع السلطان على المضى قدما فى سبيل مناصرة المقاومة الجزائرية وامدادها • حتى انتهى به الامر الى أن دخل الحرب بصورة عملية كبدته الخسارة العظمى فى موقعة ايسلى سنة 1260 ـ 1844 ورمى الاسطول الفرنسى طنجة والصويره • حتى نشا عن ذلك الاضطراب العظيم ماكدر صفو العلائق بينه وبين الامير عبد القادر مما ليس هذا محل شرحه

وعلى كل حال فان حالة الصفاء والتعاون قد استمرت غير مدخولة حتى سنة 1256

الرسائـــــل :

تولد عن ذلك التلاقى العجيب ، ان نشات بين السلطان والامير رابطة شخصية ودادية ، إساسها التآزر والتعاضد ، وهيكلها تبادل الراى ، والتعاون على احكام العمل

وكان لهذه الرابطة مظهر ادبى رفيع فى الرسائل التى دارت بينهما فسجلت للتاريخ صورة حية من العلائق الاخوية ، والمساعى الاتحادية بين القطرين فى تلك الفترة

وقد تعرض الى أمر هذه المراسلات صاحب كتاب « الابتسام عن دولة ابن هشام » لكنه لم يورد منها الا نص رسالة واحدة لم يذكر تاريخها وذكر أنه نقلها عن خط الوزير الكاتب أبى عبد الله محمد بن ادريس العمراوى (2) وقد نقل تلك الرسالة بنصها عن الابتسام المرحوم مولاى عبد الرحمان بن زيدان فى كتابه « أتحاف اعلام الناس » ج• 5 ص 67 •

ولدينا ست رسائل غير التى أثبتها صاحب الابتسام هى مخطوطة لم يسبق نشرها ولا أعرف أنها توجد فى مصدر من مصادر التاريخ ولا مجموع من المجاميع •

1) الاستقصاء ج• 2 ، ص• 193
2) ترجمته فى اتحاف اعلام الناس بجمال اخبار حاضرة مكناس ج• 4 ص 189

فأربع من هذه الرسائل ثابتة التاريخ مرتبة بين 8 شوال سنة 1252 وعشرة ذي القعدة سنة 1255 واثنتان منها مغفلتا التاريخ الا أنهما قابلتان لتقريبه بما ورد فيهما من الاشارة الى حوادث بينة الموقع من حياة الامير عبد القادر ·

فلنبدأ بالرسالتين المغفلتي التاريخ لنستطيع بعد أن نحقق تاريخهما أن نرتبهما مع بقية الرسائل · ولنعينهما موقتا بحرفي : أ و ب ·

الرسـالـة أ :

بعد ان وجه الخطاب فيها الى الامير بالتحية الآتية : « محل ولدنا الذى نظم الله به شمل الامة · وجلى بنور صدقه الشدائد المدلهمة ، حامي حمى الاسلام والمسلمين ، المرابط المجاهد السيد عبد القادر بن محيى الدين ، أمده الله بنور توفيقه ورعايته ، وجعلنا جميعا من أهل قربه وعنايته الخ··· » تسلسلت عناصرها على الوجه الآتي :

1) وصول الوفد الموجه من طرف الامير الى حضرة السلطان

2) وصول المكتوب الموجه مع الوفد المخبر بـ « هنا ، تلك الاقطار وبلوغ المسلمين بانتظام الكلمة الاماني والاوطار »

3) وصول الهدية التي وقع توجيهها صحبة الوفد وانها مما أهداه العدو الى الامير فرأى هو أن يؤثر بها السلطان وفي ذلك من ظهور عز الله ما يقتضي على العبد أن يتعلق بالله ويلتجىء اليه ليرتفع قدره فان العزة لله ·

4) الاشارة الى ما وقع التفكير فيه من توجيه سفير « باشرور » عن الامير عبد القادر الى فرنسا مع استحسان ذلك الفكر والتنبيه الى لزوم اليقظة الى خداع العدو وأخذ الحيطة من احتياله بضرب الامثال بما وقع في الاندلس وايراد الآيات والحكم القاضية بمزيد الحذر

5) صد الامير عما فكر فيه من اعتزال الامارة والاقبال على الحياة العلمية

6) تأييده فيما فعل من أخذ الزكاة قسرا من الممتنعين من أدائها بجهة عين ماضي

7) تمنى أن ينتظم كل ما كان مشمولا للحكم التركي من بلاد الجزائر في طاعة الامير عبدالقادر

8) الثناء على أخى الامير الموجه على رأس الوفد

9) التأكيد بمزيد التبصر في اختيار من سيوجه للسفارة ، لان الصالحين قليل ماهم ·

تلك هي جملة عناصر هذه الرسالة . وفيها ما يصلح لتعيين تاريخها . فان العنصر الاول يشير الى الهناء واستقرار نفوذ الامير والعنصر الثالث يشير الى هدية وقع تقديمها من طرف الفرنسيين الى الامير عبد القادر والعنصر الرابع ينص على التفكير في توجيه سفير والعنصر السادس يصرح بأخذ الامير زكاة الحيوان من أهل عين ماضي .

واجتماع هذه العناصر يعين أن يكون صدور الرسالة بعد امضاء معاهدة طفنة وما تسلسل عنها من الاحداث .

ومعلوم أن معاهدة طفنة أمضت بين الجنرال بيجو والامير عبد القادر في صائفة 1253 ـ 1837 وبها أصبحت علائق الامير مع فرنسا علائق سلمية . وقد تلقى من طرف الجنرال دامريمون والى فرنسا على الجزائر بالنيابة عن الملك لويس فيليب هدية اكرام بمناسبة التصديق على معاهدة طفنة في جوان 1837 .

واستمرت هذه المعاهدة قائمة مدة سنتين وأربعة أشهر وبمقتضاها سكنت حالة الحرب ودان للامير أكثر من ثلثي البلاد الجزائرية وشرع يقوى سلطانه ويرتب مملكته ويسعى في ضم ما بقي خارجا عن سلطانه ويفرض على الجميع أداء الزكـــاة .

وكانت أكثر البلاد امتناعا عليه وصلابة في وجهه بلدة عين ماضي بمقام الزاوية التجانية فيها ، وعلى رأسها أحد أبناء مؤسس الطريقة وهو الشيخ محمد الحبيب التجاني ، وطالما عرض الامير على أهل عين ماضي أن يؤدوا اليه زكاة أموالهم وابلهم فلم يظفر بشيء ولم يستطع أن يهاجم المدينة فبقي مغتاضا . وصادف أنه في أوائل سنة 1254 هجرية ربيع سنة 1838 ميلادية كانت ابل لاهل عين ماضي قد خرجت ترعى الى جهة ثنية الحد فأغار عليها جيش الامير عبد القادر ولما خوطب الامير في شأنها أجاب بأنها بعض ما هو في ذمتهم من الزكاة مدة خمس سنين ـ يعني من بيعته بالامارة سنة 1348 ـ فكان ذلك مبدأ فساد الامر بينه وبين أهل عين ماضي ممـا أدى الى محاصرتها والاستيلاء عليها سنة 1255 (1) والى هذه الاحداث التي سردناها ترجع اشارة العناصر الاول والثالث والرابع من الرســالة .

---

1) الكولونيل آزان ، ص 112 والرحلة الحجازية ، الجزء الثالث

ويكون العنصر الباقى من العناصر ذات الولاية راجعا الى ابتداء المفاوضات فى فهم معاهدة طفنة وصور تطبيقها ٠ وهى المفاوضات التى انتهت الى القطيعة ونقض تلك المعاهدة ٠

وقد ابتدأت هذه المفاوضات (1) بمحاولة المارشال فالى الوالى العام لفرنسا على الجزائر حمل الامير عبد القادر على التنازل عن قطعة من عمالة قسنطينة تطبيقا للفصل الثانى من معاهدة طفنة على ما يراه الوالى الفرنسى فى تأويل ذلك الفصل ٠ فى حين أن الامير يحتج بنص العبارة العربية فى الاصل الذى هو موقع عليه وهى لا تحتمل المعنى الذى يريد الحمل عليه الوالى الفرنسى ٠ ولما احتدّ الجدال حول ذلك أشار المارشال فالى على الامير أن يرسل سفيرا عنه الى ملك فرنسا حاملا هدية فى مقابلة الهدية التى كانت أرسلت اليه عند التصديق على معاهدة طفنة ٠ وفعلا تم ارسال سفير حاملا هدية هو الشيخ المولود بن حراش الذى اقتبل بباريس فى شهر أفريل سنة 1838 ٠

وهذا يزيدنا تقريبا لتحقيق تاريخ الرسالة ، لانه اذا كانت العناصر الاخرى تقتضى أن الرسالة كتبت بعد معاهدة طفنة وبعد الغارة على ابل عين ماضى ، فان هذا العنصر يقتضى أن الرسالة كتبت لما كان أمر السفارة الى باريس فى حيز التفكير ، قبل أن يتم بالفعل ٠ وقد رأينا أن ذلك تم فى أفريل 1838 فى شهر صفر سنة 1254 فيتعين أن يكون صدور الرسالة قبل ذلك بأن تكون محررة بين ذى الحجة سنة 1253 والمحرم سنة 1254 ٠

الرســـــــالـة ب :

هى أخصر من الرسالة أ وقد ابتدأت بتحية مختصرة : « محل ولدنا الارضى المجاهد الخير المرتضى السيد الحاج عبد القادر بن محيى الدين وفقك الله وأعانك الخ٠٠٠ » ولا تتضمن الا ثلاثة عناصر :

1) الاخبار بوصول الثائر عبد الله الذى وجه الى الحضرة السلطانية مع مكتوب

2) الابتهاج بما ورد فى المكتوب من المساعى الجارية لدخول جهات قسنطينة تحت حكم الامير

---

1) آزان ، ص 145

3) التحدث بما تضمنه المكتوب من أن الثائر الموجه كانت ثورته بدسيسة منأضداد الامير فى الجهات الشرقية ٠

ومع كوننا لم نهتد ، فيما رجعنا اليه من المراجع ، الى التحقق من الثائر عبد الله من هو ؟ فان الرسالة بذاتها تفيد أنه رجل كان فى أول أمره بالمغرب الاقصى وادعى دعاوى تدجيل مثل كونــه نزل من السماء فلم يكــن لفتنته كبير رواج بالمغرب ٠ ثم دخل الجزائر واتصل بالامير عبد القادر فأواه وأمنه وأنعم عليه ٠ لكنه قام بدعوة الى الثورة ضده ٠ ولما كان آتيا من سلطنة المغرب لم ير الامير أن يقدم هو على عقابه فوجه به الى السلطان ليقضى فيه بأمره ٠ وليس فى هــذا العنصر ما دامت القضية غير معروفة ما يفيد شيئا عن تاريخ الرسالة ٠

أما العنصر الثانى فانه يشير الى استعداد للسير الى قسنطينة ٠ ومعلوم أن قسنطينة كانت ، الى أن احتلها الجيش الفرنسى فى أكتوبر سنة 1837 (رجب 1253) فى حكم الحاج أحمد باى عاملها ٠ ولم يكن الامــير يتطلع الى منازلتها ٠ وانه هاجمها أولا بعــد احتلال الفرنسيين اياها فلم يتمكن من فتحهــا الى أن أمضت معاهدة طفنة ٠ فيكون ما أشير اليه من الرسالة من المخابرة مع الجهات القسنطينية أمرا وقع عند ابتــداء الاستعداد لنقــض معاهدة طفنــة بعد خيبة المفاوضات وقبل استعادة الحرب أى فى أواخر سنة 1838 منتصف سنة 1254 ٠

وأما العنصر الثالث فان ما يشير اليه من توقع أن تكون حركة الثائر ذات ارتباط بما للامير من ضدية فى عين ماضى ، يقرب أن يكون صدورها بعد قضية الاستيلاء على الابل وقبل التوجه الى حصار عين ماضى ٠

وهذا يؤكد ما يفيده العنصر الاول وينتهى بنــا الى تقــرير أن الرسالة ب صدرت عن السلطان حوالى شهر رجب 1255 (سبتمبر 1938) ٠

للعدد الآتى : الرسائــل الاربــع المؤرخــة

ترتيب جملة الرسائل ــ التحرير ــ النسخ

وجود ... ولكن

بقلم عبد الله ركيبي

ما قيمـــة الانســان في هذه الحيــاة ؟! هل قيمتــه في حريته ٠٠ أم في وجوده ؟! مجرد وجوده ؟٠ ما معنى حياتي أنا ؟! ماذا يعني وجودي ؟!

كانت هذه الاسئلة وأخرى غيرها تتدافع في رأسه ٠٠ ثم ترتسم ـ أمـام عينيه ـ علامات بــارزة ٠٠ ويشعر بهــا تقتــرب منه ٠٠ ثم تقتــرب سخنــة مضطرمة كلفح النار تكاد تخنقه !! ويحس بضغطها الشديد يلفه من رأسه الى قدميه فينتابه دوار يبعث الغثيان في نفسه ويوشــك أن يطرحه أرضـا ٠٠ فيلتفت يمينا وشمالا كالمذعور ٠٠ فلا يرى ســوى أمواج من البشرية تغــذى السير أو تمشي متمهلة ٠٠ ويجد نفسه يضرب في الطريق ـ مـع هــؤلاء الناس ولكن دون هدف او غاية ٠٠٠ ويضيق بالناس وبالاحيــاء جميعــا !! لماذا ؟ انه لايجد جوابا لهذا السؤال ٠٠ فهو لايعرف سببا لهــذا التبــرم ٠٠ وهذا القــلق ٠٠ وهذا الضيق ٠٠ ربما لانه بعيد عن الاهل والوطن ٠٠ وربما لان الاخبار قد انقطعت عنه منذ زمان ٠٠ وربما هناك أشياء اخرى لم يستطع ان يكتشفها في نفسه !! ويهزه الشوق الى الوطن الحبيب فتنساب دمعتــان طويلتان جدا على خديه ٠٠ ولكن انى له ان يشاهد الارض الثائرة ٠٠ وبينه وبينهــا مئات الاميال ٠٠٠ فيزداد حيرة وتبرما ٠٠ انه ثائــر على نفسه التي تعذبه بين الفينة والاخرى بمثل هذه المشاعر والانفعالات التي تجعل حياتـــه جحيما لايطاق ٠٠ ويتمتم « ماذا جرى لي اليوم ؟! انني لست في حالة نفسية طيبــــــة !! »

ويركب جناح الخيال يطوف به أرجاء الجزائر ٠٠ فيجوب كل الاماكن التي وطئتها قدماه ٠٠ ويتحدث مع الاهل والاصحاب يخوض معهم في هذه الحرب التي طالت وامتدت ٠٠ ويعيش ايام الثورة التي مرت به هناك ٠٠ فتتتابع الاحداث في ذاكرته بسرعة البرق ٠٠ فيرى جنود العدو وكيف كانوا يرعبون أبناء وطنه يعيثون فسادا في أرضهم الطيبة ٠٠ يتذكر كل شيء حتــى اولئك الصبيان الذين كانوا يلعبون في الشوارع حاملين ألوية متقدمين كالجنود ٠٠ ولا تغيب عن ذاكرته ابسط الاشياء ٠٠ حتى فارق وطنه مكرها مقهورا فارا من ظلم هؤلاء الاغــراب الافاقين ٠٠ ولا يرده الى عالم النــاس ســوى هذه الدفعات التي يتلقاها من المارة ٠٠ من كتف هذا اويد ذاك او من رجل الآخر !!

فيفيق من تهويماته فيجد نفسه يخبط فى الطريق ٠٠ فيرجع الى اسئلتـــه المألوفة فلا يعثر لهـا على جـواب ٠٠ فيردد فى نفسه ـ وشعور الهزيمة يملا حلقه : « ماذا اصابنى ؟ ٠ هل جننت ؟! » ٠

لم يقع له شيء يمكن أن يسبب له هذا القلق ٠٠ فأيامه متشابهة لا طرافة فيها ولا تغيير ٠٠ انه يجتر يومه كأمسه تماما ٠٠ فليس الزمن لديه سـوى ليل ونهار ولا شيء بعد ذلك !!

هل انعدم شعوره بفاعلية الزمن ؟ ٠ هل تساوت لديه الحوادث ومعطياتها فبات لا يفرق بـين الحقيقة والوهم ؟! ويعود الى نفسه يوبخها يلعنها ، يـود لو يخنقها لو يمزقها ليرتاح نهائيا منها ومن وساوسها وشكوكها ٠٠ انهـــا مصيبته الدائمة التى ستدمره يوما ، لاشك فى ذلك ٠٠ وفى غمرة هذه الحيرة يفتح صفحة يومه ليستعرض حياته منذ ان خرج من بيته يسعى لياتى لعائلته بما تتبلغ به فى هذا النهار ٠٠ فلا يرى فى هذه الصفحة شيئا يمكن ان يعده سببا لهذا القلق الذى اجتاح نفسه !!! ولكن ما هذه ؟ ٠ ما هذه النقطـــة السوداء التى تبدو بعيدة تطفو على صفحـــة الذاكرة ٠٠ انها تكبر وتتسع شيئا فشيئا ٠٠ مثل دائرة الماء التى تظهر عندما يلقى المرء حجرا فى بئـــر أو فى بركة من الماء ٠٠ انها تقترب من نفسه فتزداد وضوحا شيئا فشيئا ٠٠ ويغمغم : آه ! ٠٠ انها هى السبب !! لقد تذكرت ٠٠ هذا ما عذبنى اليوم ٠٠ نعم هذه هى الحقيقة ! ! ٠٠»

انه يذكر بالضبط ما جرى له اليوم ٠٠ لقد تذكر الحديث الذى دار بينـه وبين بعض زملائه ٠٠٠ كانوا يتحدثون عن الجزائر وعن الحرب التى تدور فيها منذ عـدة سنوات ٠٠ وعن الآلام التى يعانيها الشعب الجزائـرى وهو صابر ثابت ٠٠٠ وكان كل واحد يعلق على هذه الحرب وفظائعها حسب وجهة نظره ٠٠

وفجأة سأله حدهم :

ـ « متى تستقل الجزائر ؟ ٠ »

ـ « عن قريب ٠٠ عن قريب جدا ٠ »

ـ « ان شاء الله ٠٠ »

وردد باقى الزملاء هذه الجملة : « ان شاء الله » وهبط برود ثقيـــل ٠٠ ثقيل كالموت على جلستهم تلك ٠٠ فنظر الى اصحابه فرأى فى اعينهم نظرات تحمل معـانى شتى ٠٠ يا لله من هـذه النظرات ٠٠ انهـا تخـزه كالابـر ٠٠ كالامواس ٠٠ كالسيوف الحادة تقطعه وتمزق روحه ٠٠ لحمـه ٠٠ قلبـه ٠٠

شعوره ٠٠ كيانه ٠٠ نظرات لن ينساها ابدا ٠٠ سيذكرها مدى الحياة ٠٠ سيذكر معانيها ٠٠ معانى الرثاء ٠٠ والاشفاق ٠٠ والعطف ٠٠ والمجاملة وتمنى ان لو كانت تحمل معانى اخرى غيرها ٠٠ معانى فيها تحد ومغالبة ٠٠ فكان باستطاعته أن يرد عليها بتحد أكثر ٠٠ وينتقم لكبريائه الجريحة ٠٠ ولكنها لم تكن كذلك ٠٠ انها نظرات تشعره بالدونية ٠٠ بالحقارة ٠٠ بالنقص ٠٠ ويصرخ بينه وبين نفسه ضاغطا يدا باخرى : « انهم يذكروننى بوجودى الناقص ٠٠ بانسانيتى المقيدة ٠٠ بحياتى المبتورة ٠٠ بكيانى الذى يحتاج الى شىء آخر غير الحياة والحركة والتنفس فيعطيه المعنى الحقيقى من وجوده ٠٠ اننى احتاج الى الحرية ٠٠ فبغيرها لامعنى لحياتى ولوجودى ٠٠ ولا قيمة لانسانيتى ٠٠»

وتعلو شفتيه بسمة ساخرة تقطر مرارة والما ، وهو يحدق فى هذه الكتل البشرية التى تروح وتجىء من حوله تتسابق وتتدافع من اجل الحياة ٠٠ فتزدحم برأسه عناوين ضخمة لقصص أخرى وتطن برأسه أفكار جياشة ثائرة ٠٠ صاخبة ٠٠ مدوية ٠٠ فيخرج القلم ويخط على ورقة ـ دون ان يشعر : « انْ وراء كل جزائرى وجزائرية قصة ٠٠ ان عشرة ملايين لها قصص جديدة كل يوم وكل شهر وكل عام ٠٠ » ويرجع القلم فتزايله الابتسامة الساخرة ٠٠ وتعاوده نظرته الحادة الهادئة ويظهر بريق العزم فى هذه النظرة ٠٠ فيتجه فى خط مستقيم ٠٠ فى حين قد احس بالارتياح والغبطة تملا نفسه ٠٠٠ وهمهم بهذه الكلمات : « سأحقق ذاتى ٠٠ وساكمل وجودى الناقص كانسان ٠٠ »

واخذ يمشى ٠٠ ثم يمشى وقد عزم على امر فى نفسه ٠٠

صرخة لاجئ

البشير المجدوب

قالوا : جزائری ··· تونسی ··· مراكشي
لا ، بـل أنـا ··· أنـا مغربی ، مغربی !!
لا أرتضى غـير الشمال موطنـا
أبـدا ، لا أرتضى
لا وان كان البـلد تونس والسكن
والـدم منى جزائـرى
لا أرتضى غـير الشمال مسرحا
لامـانى العـذاب ومستقـر
دماؤنـا ضجت وثـارت فى الصدور معربدة :
« لا نبتغى غـير الاخوة شرعـة
تقـضى على تلـك الحدود الآثمـة
لنضرمن حربـا على أولى النفـوس الفـاترة ··
الجـاحـدة
نريدهـا واحدة فـوق الشمـال مرفرفـة
هـذا الشمـال شمـالنـا
لنـا جميعـا ··· لنـا مشاعـا
علـى الســواء
لا نبتغى عنــه بديـلا ···
لا نبتغـى
والجيش صـرح واحد يحمى ثغـورا واحـدة

والشعب كون واحد يبنى حياة رائعة
أجدادنا نبزهم ! أمجادهم كيف هي !؟
أمورهم محض اتفاق
وحدتهم محض اجتماع فى سراب العاطفة
أجدادنا نبزهم !!
كفى وقوفا وابتهالا
بالرسوم البالية
كفى بكاء لعهود ذاوية
نريدها أخوة واعية مستبصرة
عمادها عقل وفن معرفة
نريدها راسية ... نشيدها كالاطلس
جبارة عبر الزمن .

الفكر
مجلة ثقافية
تصدر في مطلع كل شهر
مؤسسها ومديرها المسؤول
محمد مزالي
المراسلة : تكون بالعنوان التالي :
الفكر ص ب 556 ـ تونس

قصيـدة شعبيـة جزائريـة

بمناسبة

انهـزام الاسطول الدنماركي أمـام مدينـة الجزائـر شهــر صفـر الاكــرم 1184 ــ جـويليـة 1770

تقـديم : **الدكتور محمد فريد غازي**

دراسة الاداب الشعبية في بلدان المغرب العربي عامة،لم تتقدم تقدما محسوسا منذ ربع قرن تقريبا ، ولعل الكسل عن البحث هو السبب الاصلي في هذا التأخر المهول ، لان المراجع التي بين أيدينا غنية ثريـة ، فلـو بحثناها ... تعـد المخطوطات التي تركهـا المستشرق *Venture de Paradis* ، **الذى عـاش** في القرن الثـامن عشر ، والتي اشترتها المكتبة القومية الفرنسية أهم هـذه المراجـع الهـــامـة .

ولقـد أعلمنـي صديقـي الدكتور عـامـر عطيـة ، الاستاذ فـي الادب المقارن بجامعة القاهرة حين كان يعد رسالة دكتوراه عن « المستشرق فنتوردي بارادى » . وقد علـم أن الاداب الشعبية لبـلدان المغـرب من المواضيع التي تهمني ، أعلمني أن مخطوطات « فنتوردي بـارادى » تحمل كميـة من هـذا الادب الشعبي الذي كنت أبحث عنه بحثا متواصلا .

فرأيت بمناسبة هذا العدد الخاص من « الفـكر » بالجزائر ، أن أتحف قراء مجلتنا العزيزة بهذه القصيدة الشعبية الجزائرية الرائعة حقا ، بلهجتهـا الصادقة وبصياغتها الجميـلة ، والتي نقلتهـا من احدى مخطوطات المكتبـة القومية الفرنسية . أما موضوع هذه القصة ، فهي الحرب التي ثـارت بـين الجمهورية الجزائرية وبـين مملكة الدانمارك ولهـذه الحرب قصة لا بد لي أن أذكرها ، وان كنت أتحرز مما أورده « فنتور دي باردى » من الملاحظات التي ربما تكون غالطة او مغرضة .

ومفاد قصتنا ان رئيس الجمهورية الجزائرية . الداى بابا محمد ــ الذى كان يترأس حكـومة الجزائر أيام زيـارة المستشرق الفرنسي ــ طلب من دول السويد ، والدانمارك وهولاندا ودولة جمهورية البندقية ان تقـدم له في كل سنة هدية ــ أو ضريبة ــ سنية من حلي وجواهر وأقمشة ثمينة لتهدى الى قواد الجيش ورؤساء الاسطول الذين لم يفتوا يحرسون أمن أهالي هاته الدول .

ورضيت كل من هاته الـدول (I) بدفع 000 25 ليرة ذهبية ، ولكـن القنصل الدانماركى ـ الم٠ داربوا *M. Darbois* ـ اذ ذاك ، أقلق الـداى باحتجاجاته المتعددة ، وقد أراد أن يواجه بقوة ما رآه بدعة ديبلوماسية بين البلدين ، وذلك حين أرسل الملك الدانماركى هدية سنية ولكنها لم تبلغ الداى ٠٠٠!

فكان هذا القنصل يسعى فى افساد علاقة الدولتين ٠ وفى أثناء المفاوضات شاع الخبر بأن أسطولا حربيا دانماركيا يقترب من المدينة لقذفها بالقنابل وهدم أسوارها وقلاعها وحرق أسطولها ٠ ودخل الرعب على السكان وأقلقهم وعند رؤية الاسطول هرعوا الى أجنتهم (I) حوالى المدينة لينجوا من قذائف العـدو ، مخافة أن يهـدم الاسطول الهولاندى بيوتهم عـلى رؤوسهم ٠ وفعـلا ، أطلق الاسطول الدانماركى كـل نيرانه ليـلة المولد ، ولكن قذائفه لم تصـل حتى السـاحل ٠

٠٠٠ وانتهت هذه الحادثة بصلح مجدد بـين الجمهورية الجزائرية وبين مملكة الدانمارك التى رضيت أن تدفع مائة ألف دينار تكفيرا عن ذنبها ، وعادت المياه الى مجاريهـا ٠

ولكن الحادثة تركت فى نفوس الجزائريين ذكرى وأثارت فيـهم حماسا عبر عنه شاعر ، نجهل كل شىء عنه ـ سوى أن والـده يحمل اسم عمر ـ شاعـر شعبى فحل ، فى قصيدة جميلة .

القصيـدة :

بسـم الله نبـدى علـى وفـا	ذا القصـة تعيـانـا (2)
قصـة البونبـة المتـلفة	كيـف جـابـوهـا أعـدانـا
واضحـاو عـلى البعـد وقفـا	مـا قربـوا لحـذانـا
يـا رب يـا عـالـم الخفـا	اهـزم جيـش أعـدانـا

يـا رب يـا عـالـم الخفـا

**

استمـع يـا قـوم ماطـرا	فـى هـذه القصـة نعـده
قصـة ذا الكفـار ظـاهـرا	غنمـوهـا الاسـلام كثـيرة
حـين مشات لهم بـلا كـره (4)	ديـن المـرك (3) يخـزى جـده

I) أنظر كتاب ش٠ أ٠ جوليان تاريخ شمال افريقيا ، الطبعة الاولى ، باريس 1930 ص 566

2) يعنى القصة التى رأيناها

3) الدانمـاركيـون

4) اسـم السفـن

فأزوا بغنيمة مزخرفة   بالارزاقي املانا
جات بنين الروم حالفة   أن يعطيوا بتاعنا

**

حلف بامانات كفرهم   حتى ان يعطيوا ما مشه
والا ندهم بلادهم   جاوا بذا الطعمة محرشة
الكفار ابليس غرهم   ظنوا في « البهجة » (1) مشوشة
اخذلهم ربي وذلهم   لصلاح الاسلام كيف شاء
أكرمنا ربنا على عفا   للجهاد دعانا
وأجرنا محسوب بالوفا   واحنا يا في بلادنا

**

وكيف لحق الكفار   يفارصوا (2) أرسوا على البعد كلهم
وبعد ما أرسوا وربصوا (3)   ينطظروا فيما يفيدهم
جالهم مرسول قونصول (4)   من عند السلطان سألهم
قال لهم : جيت تقرنصوا   والا تبغوا الصلح منهم
قالوا : جينا مكلفا   لطرادو تغيانا
ولا نصطلح بلا جفا   يعطيونا أرزاقنا

**

كيف اسمع السلطان ذا الخبر   اغتاض ولا ابالي كلاههم
قال لهم « نعطيهم الكور   والله يا لو يجوا كلهم
ما نرضى نعطيهم الحجر   يحرق باباهم وجدهم »
آمر في الساعة بالفتى   جات رجال الحرب كلهم
سلطان (5) البهجة المهيفا   من نصر مولانا

---

1) البهجة أو « البهجى » اسم مدينة الجزائر المتعارف عند أهل ذلك العصر
2) في معنى يمشو بالعجلة
3) تربص يعني امشي شويه
4) وهذا القنصل هو القنصل الفرنساوي م· «قالبار» الذى تعرض لنكالة الداى سنة 1763 ، من أجل أن سفينة حربية فرنسية ، أغرقت سفينة قرصنة جزائرية ، في حالة سلم بين فرنسا والجزائر ظنا أنها سفينة ايطالية ، ولم يمس التجار الفرنسيون بسوء في هذه الحادثة
5) سمى أهل الجزائر رئيس المدينة باسم « سلطان » ولكنه يحمل في المراسلات السياسية اسم « داى » أو «باشا » ويرسل سلطان المسلمين من الاستانة عند كل تولية باشا أو داى « قفطانا » وهدايا ، وكلمة « داى » تعني القائد العام لعسكر « الاجق » وسمى الجنود رئيسهم هذا « بابا » وحين يخاطبونه يسمونه بالافندى

عــذاب الكفــار كــافــه ... بجيــوشــه الفتــانــا

∴

كيف شاف السلطان ذا العدو ... نــادى لاهــل الحــرب كلــهم
قــال لهــم « هيــوا وجــدوا ... فى الابــراج (1) اللى يخصهم »
واملاهــم بــرجــال يوكــدوا ... من كــل صنايــع من أهلــهم
والمدافــع نــيران يــوقــد ... يضيــوا اللــى جــا قبــالهم
يرميوا عــلى كــل شايفــة (2) ... مــن بـــرج وطــوبــانــه
والرجال عــلى الحــرب واقفــه ... كــالسبــوع غضبــانــه

∴

ولت « البهجــة » كمــا الجمــر ... ترمــى المــوت بنــار شــاعلــة
تحــرق من الابعــاد من كفــر ... بانقــاض (3) اسبــوع مقــابلة
وعــدوهــا لــو جــار ينكســر ... وجيــوشــه يضحــاو فاشلــه
البهجـــة من حــازت النصـــر ... ظنوهــا الخــزيــان ساهلــه
جاولهــا بسفــون عــاجفــه (4) ... يحســابــوهــا جبــانــه
لــين ولت ترمى مــرادفــه (5) ... بصــواعــق نيــرانــا
أمــا يــدرى الكفــار كلــهم ... بــأن البهجــى هــى عــذابهم
دايــم تخــل فى بــلادهــم ... بهيـــات القـــرانصــة
عسكــرها معــلوم عنــدهــم ... يرضم بسيوفــا اخشــانــا (6)
جــاوا بنـــين الــروم يحسب ... بــلاد الخير (7) بقــات سايبــه
اعيـــاوا الكفـــار يكـــذب ... بالمدافــع يــرميــوا بــونبــه
مــا لحــق فيمــا تعذبــوا ... وامشــات الخــزيــان خايبــة
والله يــا لــو كــان قــربــوا ... لصــاروا حيطــان رايبــه (8)
لكــن قــوم الــروم خــايفــه ... شــافــوا المــوت عيــانــه
ما صابوا للصــلح سعفــه (9) ... وامشـــاوا فــى اهـــانــا

---

1) هذه الابراج قديمة ولكن الداى شيد برجا بحريا صغيرا ، على الماء ، عند وصول الاسطول الدانمركى
2) يعنى كل ما تنظره العيــون
3) الانقاض جمع من نقض يعنى مدفع
4) يعنى بمراكب طالبة للشر
5) يعنى حتى رجعت ، حتى صارت ترمى بلا انقطاع
6) يهجم بسيف عريض ، خشين
7) لفظة غربية ولعل الشاعر أراد أن يهزأ بالاصطول الذى سمى الجزائــر : أكجـــير
8) يعنى حيطان هابطة ولقــد اعترف دنتوردى برادى أن قنابــل الاسطــول الدانمركى وقعت على مسافة ميل من المدينة فى البحر فلم تصب شيئا من المدينة
9) يعنى طريــق

كيف شافوا الحمبا يصدر   العسكر ذا الكفار ظنهم
صار في حيره يدبر   في ذا الرأى وضاق أمرهم
ما صابوا من هو يشاور   للصلح ولا من يفيدهم
بعد ما كانوا تناصروا   اخذلهم ربي وذلهم
والسلطان ، الله ينصره   عازم للزضمه (1) بشرهم
وصا صال (2) ، أعجب ما نفع   للاسلام اعانة
بمدافع فوقه مكلفا   يهزم به أعدانا

**

يوما به ابغاوا يزضم   الاسلام بلا شك عازمين
عرفوا الكفار عوموا   ذاك اليوم مشاوا هاربين
والله يا لو كان داموا   لكانوا للكفار حاصلين
يا رب بجاه من اسمه   محمد الصادق الامين
أحمى مزغنه (3) من الآفات   واجعلها مطمان
بجاه اللى فيها من أهل العفا (4)   الرجال العيان (5)

**

اتفقت الاسلام للجهاد   وصار بالفرح يخدموا
في المتارز : خادين عناد (6)   بلا سيف القوم يعزموا
وأهل العلم مصابح البلاد   معهم زادوا تحزموا
تبات بالاذكار والاوراد   وكلام الله فيه يختموا
تبات الرياس (7) واقفه   تربط في الميزانة
بقلوب على الحرب لاهفه   ما هم شى شبعانه

**

كيفاش الكفار يطمع في البهجة   سلطانة المدن
من فيها رجال يدفعوا عنها   كل بلا من الفتن

---

1) علينا أن نلاحظ (52 للزضمة) و (55 يزضم) والفعل هو (زدم) لكن اصبحت الدال (ض)
2) سفينة بحرية أوصى الداى باعدادها لتهاجم بمدافعها الاسطول الدانمركى
3) هو اسم متعارف لمدينة الجزائر
4) يعنى أهل العفو ، أهل الرضوان
5) يعنى الاولياء
6) يعنى اخذين عناد
7) الرياس هم قواد السفن التى تملكها المدينة أم الخاصة ، ويدخل الاهالى فى سلك الرياس ، ورئيس الاسطول الجزائرى ، أيام وجود فنتور دى برآدى هو الحاج محمد وهو يهودى أسلم وبذكر « فنتور » انه نوتى ماهر

كل ولي يرمي بمدفع　　ما يخطى من خابلوا مظن
بعد ما كانوا فزعوا　　واتفق نصر لهاذا الوطن
ورجال البهجة مساعفه　　ما تغفل سهران
انتبه في الحلق رايفه　　بالالطاف والاحسان

***

أولهم سيد الثعالبي (1)　　هو السيف وصور حرمها
بحر العلوم ، خليفة النبي　　صاحب الاسرار والبها
بحديثه نفجي كرايبي (2)　　أنوار الحضرة وسرها
غاية مقصدي ومطلبي　　سلطان أهل السر كلها
في حماه البهجة مشرفة　　وبجاه مطمانا
صاحب الاصرار والبها　　حاشا الله أن ينسانا

***

سيدى بوجمعة (3) مساعفه　　شيخه ما يبغى يكلفه
ابن عبد الله (4) صيد نعرفه　　جاب في يد زانه (5)
من ضرب بها يتلفه　　ما يظهر نلآن (6)
سيدى الكتاني (7) نحقق دايما　　مدفع ما لحقه
والرجال السبعة (8) اتفقوا　　جاو في غيظ اشحان
سيدى السعدى (9) ما يفارقه　　سيف الاهل الجوان (10)
هذوما صور حرمها　　واللى فيها رجال قايمه

1) ولي الجزائر المشهور ، وهو مدفون خارج الواد ، شمال المدينة ولضريحه ـ عند العامة ـ بركة كبيرة ـ يحتمي به الناس فلا تنالهم السلطة ما داموا داخل حرمه
2) يعني نزيل حزني
3) ولي مدفون بضريح سيدى الثعالبي
4) ولي مدفون على ساحل البحر ، خارج باب الواد
5) يعني عكاز
6) اقرأ « للآنه »
7) ولي مدفون على ساحل البحر قريبا من سيدى عبد الله
8) هم الشهداء السبع ـ ويظن أنهم اخوة ـ سقطوا نفس اليوم في جهادهم ضد النصارى ، ودفنوا خارج باب الواد
9) ولي مدفون خارج باب الواد
10) أهل الجوان يعني النصارى

سيدى الفاسى (1) ما يهونها … والجودى (2) بحماه سالمه
ولى دده (3) صيد قدها … راسا للكفار معظمه
جات بنى الروم قبالها … جاء للبحر وقال نه « اطما ! »
هاج البحر كسر سفونهم … وابقات غير الالواح عايمه
عبد القادر (4) حرمها الكفا … هو اللى يرعانا
وأهل الله فيها مجاوفا (5) … حاشا تلقا الهانه (6)

***

جازت نزهة فى بلادنا … والابراج تبات زاهيا
باكياتر ومصارب الغنا … والرجال على الحرب ماضيا
(الآغا) (7) واصحابه مشاحن … نيران على الحرب قاويا
و (الخزناجى) (8) صيد كامنا … وأصحابه أسود ثانيا
زيدوا (وكيل الخرج) فى (9) الثنا … سلطان المرسه المساويا

1) ولى ضريحه داخل أسوار المدينة قريبا من باب الواد
2) كذلك
3) عاش الوالى دادا أيام غزوات شارل الخامس لمدينة الجزائر 1541 ويعتقد أهالى الجزائر فى القديم ان العاصفة الهوجاء التى حطمت الاسطول الاسبانى الهائل هى اجابة ربانية لدعواته ، وأكثر الظن أن هذا الولى مات شهيدا وقبره موجود داخل المدينة
4) هو سيدى عبد القادر الجيلانى دفين بغداد ، وهو يتمتع عند الجزائريين فى القديم بحرمة كبيرة ، فكلما خرجت سفينة للحرب أو للقنص البحرى أو للقرصنة أطلقت المدافع لتحيته داخلة المرسى أو خارجة منه ، ويتمتع حرمه بما يتمتع به حرم سيدى الثعالبى فلا تمس السلط من احتمى به
5) يعنى دائرين بها
6) يعنى محال أن يصل لها سوء
7) الآغا هو رئيس الخيالة والجيش البرى كله تحت سلطته
8) الخزناجى : هو وزير مال الدولة الجزائرية اذ ذاك
9) وكيل الخرج : هو المكلف بكل المصاريف ، وهو (وزير البحرية) فى الدولة الجزائرية ، نظرا لما تمتاز به من الاهمية · ووكيل الخرج أيام القذف الدنماركى اسمه حسين ، صار فيما بعد (الخزناجى) ثم قتل سنة 1788 · فخلفه حفيده حسان أفندى الذى ترقى فيما بعد الى الوزارة كخزناجى أى كوزير أول

و (الخوجه) (I) من فاز بالهنا   واغنم سر الجود والحيا
هادوما أهل السلطنة   لطراد الكفار هاويا
تبات الرياس واقفا   ما تغفل سهرانا
بقلوب على الحرب لاهفا   تخفق كالعقبانا

***

بالحمد نختم ذا القصه   بالفرح والطرب
والصلاة على الذى اسمه   مفتاح الجنة أفر العرب
محمد من به نغنم   رضوان المولى بلا كذب
صلوا يا الامة وسلموا   والتزموا بالصلاة والادب
صلاة دايمه مضايفه   ما دامت الاقران
على آله كافه   وأصحابه الاعيان

***

تمت ذا القصة الموافقه   فى شهر المولد (2) عن يقين
بعد الماية والالف لاحقه   فى الرابع من الثمانين
تاريخ البونبه المحققه   سقط ظاهر يا سامعين
ولد عمر يبغى كما شقى (3)   تدعوا له بدعا صالح زين
مدح الهادى المصطفى   يبغى يا الاخوان
فى حمى سيد الخلق يحتمى   والحضار معانا (4)
وجميع الاسلام كافه   فى الجنة مساوانا (5)

I) الخوجة : هو المكلف بجميع أملاك الدولة ، والخيالة ، وهو بعد الداى والوزير الاول ، أهم شخصية فى الدولة والذى يعنيه الشاعر الشعبى فى قصيدته هذه هو عصمان أفندى الذى يعتبره فنتور دى برادى « رجلا فاضلا جدا » · عن هذه الانظمة أنظر كتاب ش· أ· جوليان : تاريخ شمال افريقيا ، ص 560 (طبعة أولى)

2) وحقيقة ، هاجم الاسطول الدانماركى الحصون ، ليلة المولد ، ولهذا الهجوم قصة · فلقد كان من عادة الجزائريين أن يشعلوا ليلة المولد آلافا من الشمع · وأشعلوها فعلا ، على عادتهم فى ديارهم فوق الشاطىء ، فظن الدانماركيون أن الجزائريين مستعدون لمهاجمتهم ، فطفق الاسطول كل الليل ، يلقى بقنابله على المدينة ، ولكنها لم تدركها بل سقطت فى البحر لان الاسطول كان بعيدا جدا عن المدينة

3) يعنى على قدر ماتعب

4) يعنى والحاضرين معه

5) يعنى مساوين

لن ننسى ... يا ...

بقلم عبد الرحمن اللموشي

مهداة الى الروح الشعرى الصلد ، الذى واكب به الشاعر أبو عبد الله صالح ، الثورة الجزائرية المظفرة ، بمناسبة ذكرى اندلاعها

ع٠ ل٠

اقرئينى — لا ... لن ننسى
ان ترينى — يا فرنسا ..
فأنا آية التحرير — هتيكة الازار
فى أرض الجزائر — والأوغاد من حولها
ونجم قد بدا مخمسا — فى التفاف كالسوار
يلوح بالبشائر .. — كالوثاق فى يدها
صفحات من بطولة — مشدودة كأعينهم
خطها بالدم ثائر — بممزق اللحاف
... تسحب ... تجر

∴

ذكرينى ... لا بل أذكرينى — على شوك القتاد
ان ترينى — لتلين ... وتشارك فى وأد العفاف
يا عيون ... — لكن تجيب ..
فأنا لن أنسى — فى اتقاد
ما به حبلى السنون — فى اصرار .. فى عناد :
الخمس ... مرت على أمل ملء الجفون — بحق الوطن السليب
مفتحات من شهيد وقتيل .. — بحق طفل .. وحبلى ..
وصبى ومصون — وشيخ هرم

بحق ما هدمتم ..
وحرقتم من قرى
بحق من سكن الجبل الاشم
والحرمة التى يرعاها للنساء
حتى نساكم
وبحق الرشاش فى يديه
يهتز ويغنى
اذ يراكم
لا .. لن تنالوا منى

∴

ويطير الروح رحمة
أن تهوى .. ذليله
... وتحتضن الترب ..
تلثمه قتيله
فلتشمخ فخورة فى السجن جميله

∴

اسمعينى وعينى يا أذان
أنشودة النصر أنا
لمن للجهاد .. للحق عنا
وقد آن الأوان
لأن تسمعينى
وترددينى
مع الظافرين
أغنية النصر المبين

(كانت) آهات شاعر
مكلوم الجنان
من الازيز والدوى والأنين
صاغ لها الألحان

∴

اقرئينى يا عيون
اسمعينى يا أذان
وشمينى يا أنوف
فأنا لم أبق ـ كما كنت ـ حروف
اليوم ... روضة أزهار
جنات .. وأنهار ..
بذورها أشلاء الشهداء
ريها دماء من ماتوا
(بل أحياء)
من عبدوا لنا
سبيل الفدا
من أناروا لنا
درب الحياة

∴

شذاها فل وياسمين
وعنبر
فاح منذ لاح فى الافق
نوفمبر

أدب الثورة ... ثورة في الأدب

بقلم عز الدين مَلوز

مشكلة التعبير أولى المشاكل التى يواجهها المؤلف مهما كان ذلك أن بين الواقع الموصوف والكلمات الواصفة له مدى • وبين روح الكاتب وروح القارىء شوط لا يتجاهلهما الا مكابر ولا ينكرهما الاجاهل • من أجل هذا الشوط وذاك المدى يشعر الفنان مهما كان بوحدته فى رسالته ومنهما يستوحى حريته فى انتاجه •

يصطدم الكاتب الجزائرى بهذه المشكلة اصطداما ويعسر عليه أكثر من على غيره حلها سواء أكان عمد الى الكتابة باللغة الفرنسية مختارا أم كان أكره على ذلك اكراه من لم يجد قدرة على استعمال أداة تعبير غيرها •

واختلفت فى الحكم على ذلك آراء الكتاب الجزائريين أنفسهم بين متفائل مع كاتب ياسين الذى يرجو ـ وفى صراحته جسارة ـ من هذا « التناقض الثمين أن ييمن بيمنه قرانا بين مدنيتين ما رأينا منه بعد الا باكورة ثمراته » •

وبين متشائم من ذلك الوضع ساخط لمقتضياته ، الا أن الكل قد يتفقون على الاعتراف بحقيقة عبر عنها ياسين بقوله : « العدد الاوفر من ذكرياتى وأحلامى وآمالى ومناجياتى يتعلق ببلادى • فبديهى اذا أن أكون أشعر بها ـ فى مظهرها الاصيل ـ فى لغة بلادى ، أى العربية • لكننى لا أستطيع أن أصوغها فى تعبير أدبى الا عن طريق اللغة الادبية الوحيدة التى أتقنها أى الفرنسية » •

ذاك الواقع الرهيب ، لاخجل من الأمر ولا وجل ، هو الواقع الذى يرتكز عليه فن بلغ الكمال فى نوعه هو فن الادباء الجزائريين الفرنسى اللسان : عرفوا وحدة الفنان مكرهين فبلغوا حرية الفنان ملهمين •

ذلك أن بينهم وبين قرائهم شاسع المدى ، فالجزائرى المتقن للغة الفرنسية قليل والفرنسى الفاهم للواقع الجزائرى أقل •

لكن هذا المدى ضمن لهم فى تعبيرهم حرية قد لا يبلغها غيرهم الا بعد عناء • فكأن طبيعة وضعهم حققت لهم استقلالا تاما عن قرائهم هو من شروط الانتاج الفنى الكامل •

الا أن استقلال الكاتب عن قرائه أهون منالا وأيسر ادراكا من استقلال آخر لا يبلغه بل ولا ينشده من المؤلفين الانخبة • ذاك استقلال الكاتب عن نفسه

نريد تجرده عن احساسات وعواطف شأنها الطغيان على من يدعى الالهام الفنى من عامة الناس فيرون فى البوح فنا وما الفن فيها ، بل الفن صوغها وسبكها فى قوالب التعبير المواتية لها · وذاك ما بلغه بعض المؤلفين الجزائريين ، فكان أدبهم أدبا وكان منهم فنا · اذ واجهوا مشكلة التعبير فوجدوا لها حلا ، وما فازوا الا لانهم جددوا ، وما جددوا الا لانهم كانوا ثوريين فى أدبهم ، وما أكتفوا بأن يكونوا أدباء ثورتهم ، لذلك قلنا : « ثورة فى الادب »

من جبالنا طلع ···

شاب ولد بأرض الجزائر وبها عاش ، عليها أحس ، وفيها تفكر ، منها ولها تألم وسعد · ثم بدا له ان احساساته وأحلامه تلك جديرة بأن يعبر عنها ، بل شعر بأن لا مناص له من التعبير عنها ···

لو كان وليد باريس أو مرسيليا أو روما أو لندن لاعتقد فى نفسه الموهبة ولأيقن أن مناديا من السماء يدعوه الى الانتاج الفنى ملحا ولرأيناه يرتمى على التأليف ارتماء · فينتج ما ينتج من الممتنع والمبتذل ، ويرابط بدور النشر حتى يفوز برؤية اسمه مطبوعا أسود على أبيض ، داعيا أفواج القراء الى مشاطرته رقيق احساساته والتعرف على بديع آرائه ، لكن صاحبنا وليد عنابة أو بجاية أو وهران ، مجاله غير تلك ·

لقد فهم ، راضيا أو مكرها ، أن ليس بين مواطنيه الجزائريين ــ أى العارفين بالواقع الذى منه يستقى وحيه الادبى ــ الا أقلية تحسن القراءة بأى لغة كانت · فيئس من أن يجد فى الادب أداة تفاهم مع شعبه · وفهم أن ليس من بين القراء الفرنسيين الفاهمين للغة الادبية الوحيدة التى يحسن استعمالها الا أقلية لها بالواقع الجزائرى خبرة غير خبرة الاوروبى المستعمر بمستعمرته ، لا خبرة الجزائرى المستعمر فهو يائس من أن يشاطره قراؤه آراءه واحساساته ·

أولهما أنها تنزهه من الغباوة ، اذ تجعله لا يطمع فى أن يهز كتابه الجماهير هزا ولا حتى أن يجد من القراء تفهما وعطفا يغيانه عن الاجتهاد والعبقرية ·

ثانيهما أنها تضمن له حريته الفنية اذ ترفعه عن أن يقتفى فى أسلوبه الادبى طرق الابتذال أو أن يخشى الابتكار فى تعبيره سعيا وراء ارضاء قارىء يعرف الواقع الموصوف أو يظن أنه يعرفه فلا يقبل تصويره الا كما يتصوره ·

فمن مقتضيات هذا الوضع ان لم يتجاسر على التأليف من الجزائريين الانخبة أهلها العقل لذلك وأهلتها العزيمة ·

نخبة موقنة بما يستوجب النجاح الادبي من المقدرة الفنية ، شاعرة بأن العبقرية وحدها تغزو جماهير القراء غزوا فلا ترجو عطفا ولا حنوا تمليهما اعتبارات غريبة عن الادب • بفضل ذلك تمت لمن اصطفتهم للتعبير عن روح الجزائر عبقريتهم — وعبقريتهم وحدها كما رأينا — حرية فنية نادرة مكنتهم من التعبير عنها بكل صدق وبكل جسارة • لايخشون في ذلك الابتذال ولا يبتغون الاغراب : وصف المناظر الطبيعية أو قص حوادث الحياة اليومية عندهم مقصودان لا لتزيين أو تزويق بل مقصودان للترجمة ترجمة حية ، عن الروح الجزائرية التي هي في الحقيقة موضوع كل ما يكتبه هؤلاء المؤلفون • وموضوعهم الوحيد ، بان ذلك للعيان أم خفي •

يبرهن على ذلك ما يلاحظه الناقد من اعتناء المؤلفين أو أكثرهم باجتناب الغرابة فيما يصفون ، بل في تعمدهم وصف الواقع اليومي المعتاد وفي اختيار أبطال ليسوا سوى أشخاص عاديين كما يصفهم مولود فرعون في قصته « الارض والـدم » • أما المناظر الطبيعية فكأنما المؤلف توحي الينا وجودها وحيا صفحات مختصرة بليغة تجعلنا نتفسح بين جبال بلاد القبائل الشامخة متتبعين طرقها التي « تلتوي في جنون » حسب تعبير اختاره فرعون مصيبا •

ولا تقل عن ذلك اجادة وصف محمد ذيب لمناظر المدن كوصفه « الزقاق » وهو مرتع عمر بطل قصة « الدار الكبرى » وأقرانه كما رآه وقت كان في زمرة صبيان تلمسان الذين لا شغل لهم سوى التفتيش عن شغل •

في تلك المواقع الريفية والحضرية منازل عرفنا بمنظرها من وصف فرعون لديار قبيلة ايغيل نزمان « البطنة الجدران » ، أو وصف ذيب للوكالة المسماة « بدار سبيطار » وهي موقع حوادث « الدار الكبرى التي تبدو حيطانها وأبوابها وغرفها كأنما قد تجمعت صدفة من غير تدخل أي بناء حقيقي » •

في الديار والدكاكين أو خارجها في الازقة والارياف عائلات نشاركها بفضل محمد ذيب وفرعون وبفضل كاتب ياسين ومعمري حياتها اليومية ، نشاركها الافراح والاحزان والآمال والمخاوف ، فنراها تتحد وتتخاصم مثل تلك العائلة التي يقول عنها بعضهم أنها تغلق الابواب عند ما تنشب بين أفرادها الخلافات ولا يفتحها الا بعد أن يستتب الامن ، فيخرج الجماعة ووجوههم مضرجة بالدم ، لكنهم يتظاهرون بالابتسام عازمين على أن لا يساروا أحدا بأسباب خصامهم ولا بنتائجه •

نرى اذا أن المقصود من تصوير المناخ الطبيعي تصوير موقع المسكن وتصوير المسكن مقصود من ورائه تصوير المجتمع : هو **المجتمع** الجزائري • وميزة

المجتمع الجزائرى كما بدا لهم استتباب النظام الاستعمارى فيه وطموح الضمائر والارواح الى التحرر منه ٠

٠٠٠ صـوت الاحـرار

حمى الثورة فى كل المجتمعات حتى أسعدها ٠٠٠ قد ينكر أرهب ارتعاداتها أناس ويشعر بأدنى ارتعاشاتها آخرون ٠

أما الكتاب الجزائريون فقد أهلهم مجرد مولدهم بأرض الجزائر للاعتناء بهذه الحمى ٠ لانها الظاهرة الاصلية الاصيلة من مجتمع سيطر عليه نظام لم يعد يرتكز على غير القوة ٠ لذلك كان الكاتب الجزائرى ، سواء اعتمد ذلك أم تعمد اجتنابه ، لسان ثورة : من خلال وصفه لبلاده ، من خلال تحليله لمجتمعه نتطلع على ظواهر ثورية فى جوهرها وان يكن وقع عرضها فى قالب غير ثورى ٠

فان فقر وادقاع فلاحى ايغيل نزمان التى يصفها مولود فرعون والاوساط الشعبية بتلمسان التى يصفها محمد ذيب وحتى مركب النقص الذى يسيطر على أوساط « الاعيان » والمثقفين التى تصفها جميلة دباش أو آسيا جبار ــ ولو كان وصفها واصفا فى لهجة الصابر المستسلم بل حتى اذا رأيته يغزو مسؤولية هذه الاوجه المختلفة من التعاسة الى غير الاسباب السياسية فان فى مجرد وصفه لها واهتمامه بها ما من شأنه أن يجعل من كل قصة نداء ٠

أمة محرومة من الرفاهية والسعادة والحرية

فقد يغتر القارىء المغـربى بما فى اللهجة من لطف وتعقـل فيستغرب من المؤلفين الجزائريين صبرهم لما يشاهدون من تعاسة أمتهم ، لكن عليه اذ ذاك أن يفهم أن فى وصف الواقع فى تلك اللهجة الرصينة ما من شأنه أن يؤثـر على القارىء الاجنبى ــ وجل القراء كما قلنا أجانب ــ تأثيرا أعمق من تأثير الاتهام والشتـــم ٠

فأبلغ بكثير أن يعلمنا المؤلف الجزائرى أن « الحرمان هو حالة صبيان قريته الاعتيـادية » لا من أن يتوجه بالتهمة الى النظـام الاستعمارى ، وأن يشرح أن الوضع السياسى هو المتسبب فى ذلـك الحرمان وأبلغ بكثير من الالحـاح فى المطالبة السياسية والاجتماعية وصف ما يبذلـه صبيـان من صبيـان القرية من المرونة والذكاء ليفوزا بالمشاركة فى غـذاء أبويهما المستعملين فى حضيرة شغل يشرف عليها « عرف مشهور باتباعه العوائد الاوروبية »

لانه يطعم عملته فى أوقات معينة ويقدم لهم أطعمة مغذية ٠٠٠ » وما هذا الا استشهادا عـلى أن كتبهم وان اعتمدت التجرد فى أسلوبها الوصفى والقصصى ناهيك أنا نجد كثيرا من المؤلفين يتخذون حياتهم نفسها موضوعا لكتبهم الاولى فانهم استطاعوا أن يصدعوا فى فن وبراعة « بقضية » هى قضية شعب يناضل من أجل السعادة والحرية ٠ فصادفوا أسمى درجات ما يسميه كثير من محترفى النقد الادبى « الالتـزام » السياسى والاجتماعى عن طريق غـير طريق التبجح بلهجة الالتزام والتظاهر به ٠ فجمعوا بين الاخلاص الى الوطن الذى ولدوا فيه واحترام ما اصطفاهم به القدر من العبقرية الادبية ٠

ثـــورة أدبيـــة :

لهـذا وبذلك استحق الادب الجزائرى المعاصر أن يسمى أدبـا ٠٠٠ وجـد المؤلفون طرق الابتـذال الصحـافى والخطـابى موصدة أمـام أوجههم فعلموا مختارين ومجبورين أن الادب مغامرة وأن الفـوز فى ميادينه صعب المرام ممـا جعلهم أو أكثرهم يبلغون بفنهم درجة الاتقـان علمـا منهم بأن النجاح الادبى نصيب مستحقيه ٠ وأدى بهم هذا الحرص على الاصابة فى التعبير عن حقيقـة بلادهم وبيئتهم الى التعبير مصيبين عن مشاكل أوسع مجـالا وأعمق معنى من المشاكل الوطنية البحتة ٠

مشاكل انسانية فى مداها ، جوهرية فى مبتغاها ، يهتم لها أبعد النـاس عن جنسية المؤلفين وعن مبادئهم السياسية والاجتماعية ٠ فهذه مغامرات أبطال مالك الحداد ومولود المعمرى وغيرهما تكتسى من المعانى ما يهم الجزائريين وغـير الجزائريين من بنى الانسان المواجهـين لمشاكل الانسانية الابدية : البحث عـن الحقيقة ، والجد فى سبيل الفضيلة ، والسعى وراء السعادة ومما يعلمه كل من له بالادب العالمى خبـرة أن الاصابة فى التعبير عن هـذه المشاكل الابديـة فى جوهرها لا يتم الا لمن وفق الى التجديد فى اختيار الاسلوب المترجم عنها ٠ وفى ذلك التجديد تتلخص الرسالة الادبية فى أسمى معانيها وذلك التجديد يقتضى ما يقتضى من ثورة على العادات المطردة فى التعبير ، ففى كل مدرسة أدبيـة بل فى كل أديب أصيل تتمثل ثورة ٠

من هذه الناحية كان أدب الثورة الجزائرية ظاهرة ثوريـة فى تاريخ الادب العالمى لانه جدد لغة الملاحم وجدد لغة القصص لبلوغه تعبيرا يوفق بين الترجمة عن حقيقة تاريخية جغرافية معينة والاصداع بمشاكل انسانية عامة أبدية ٠

فاهتمام الناقد الادبى بالمؤلفين الجزائريين لا يعتمد على اعتبار أصلهم الجنسى أو الدينى ولكن على ما يجده عند قراءتهم من بلاغة التجديد لعـريق المشاكل

الانسانية فهذه فى كتبهم مشاكل الصداقة والعداوة والحب والموت والدين والآخرة تطرق فى أسلوب مجدد يجعلنا نعتقد أن الانسانية قد خطت بفضل هؤلاء خطوة فى طريق التفهم لمصيرها ٠ وان هؤلاء الابطال المسمين عامر وذهبية ومقران وعزيزة وعمر وعويشة جديرون بالالتحاق بانتيغون وأورست وهوراس وروميو وجولييت أمثالهم من الابطال الذين تجوهرت فيهم مشاكل الانسانية بالامها وآمالها ، ذلك أنهم فى صرخاتهم الجزائرية صدعوا بصوت مجدد جديد من أصوات الانسانية الأبدية ٠

من نصيب العباقرة والعباقرة وحدهم أن يفوز أبطالهم بالانتصاب حذو هذه الاوجه الخالدة التى اعترفت بها الانسانية مرآة ترى فيها ضميرها ، وبلغ المؤلفون الجزائريون أو أكثرهم هذا المستوى ٠٠٠

الا أنهم على الرغم مما نعترف لهم به من المقدرة والموهبة ما فازوا هذا الفوز الادبى فى هذه السرعة وفى هذا الكمال الا لان قضية البلاد التى كانت لهم مولدا كست السياسة معنى مطهرا ما اكتسته السياسة فى تاريخ الانسانية الا بمناسبات قليلة وقت تأزم بعض الازمات نرى فيها جنسنا الانسانى يجاهد جهده للتحرر من وضع يتشبث به كل ما فيه من قوى التأخر والتقهقر وبلوغ وضع أسمى يصبو اليه كل ما فيه من قوى الحياة والرقى ٪

محادثات في الجزائر (١)

بقلم رابي Rabi

ترجمة المنجي الشملي

الاولاد الصغـــــار

وطرق الصبى الصندوق بفرشاته :

ـ كـم ؟

ـ 400 فرنـك ٠

ـ خذها ، وهذه خمسون أخرى ٠

ـ خمسون ؟ لك أن تبقيها عندك ٠

ـ وألححت ٠ فقبلها ارضاء لى ٠ ولكنه كان ـ فيما يبدو ـ غير مرتاح لذلك ٠ وما هى الا أن شعرت فجأة بشيء يحز فى نفسى ٠ فالتحقت بالصبى فى البطحاء باحثا عنه ، وجدتـه :

ـ دونك وخمسين فرنك أخرى ٠ أنت مساح جيد للاحذية ٠

واستوضحت معلما فاجابنى قائلا :

ـ العرب الصغار ؟ موهوبون ، ناشطون ، أذكيـاء ٠ ولكن هـل يعترفون بالجميل ؟ لست أدرى ٠ انى أعلم أن عددا من معلميهم رموا بالحجارة فى آخـر السنة ، وأن معلمات أهن قذفا بالبصاق ٠٠٠ هؤلاء الاولاد صورة تنعكس فيها آراء آبائهـم ٠ هم يأتـون أحيانا الى المدرسة حاملـين شارات جبهة التحرير الوطنى ، أو هم يغنون نشيد الفـلاقة ٠٠٠ هل يقـولون ؟ لا ، انهم بكلمـة لا ينبسون ٠ ولقد أذكر أنهم لزموا ـ مرة ـ صمتا كان باعثا على الحيرة ٠ ولكنى لم احتـرز ٠ ومن الغـد ألقيت قنبلة يدوية بالقـرية ٠ ولم يحـادثنى الاولاد الصغار فى صراحة سوى مرة واحدة ، هم أولاد يسكنون مشات قريبة كانت هدفا لحمـلة دامية ٠ قالوا بأنهم ساموهم سـوء العذاب ، وأن الحمـلة أسفرت عن مأتـم فى كل عائلـــة ٠

ـ والمعلمون العرب ، زملاؤك هل يقولون ؟

(I) مجلة اسبرى ـ الفرنسية ، العدد الصادر بتاريخ جويلية واوت 1959

ـ قليلا ما نتصل بالمسلمين ٠ اننا نعيش فى حسن تفاهم عامة فيما يخص شؤوننا المهنية ٠ ولكن ما نكاد نذكر المشكلة حتى يكون السد ٠ لا نظفر منهم بشيء المثقفون ٠ المثقفون !؟ هم موجودون !؟ ما فى ذلك شك ، ولكننا لا نجدهم الا لماما فى المجالس البلدية التى أعيد انتخابها منذ زمن غير بعيد ٠ وانه لا يتسنى أن نعمل عملا ايجابيا بدون هذه النخبة ٠٠٠ وكنت دائما أسمع الصبيان يقولون : « عند ما نظفر بالحكم ٠٠٠ عند ما نملك ناصية الامور بالبلاد ٠٠٠ »

والآن ها أنا أصغى لهذه المعلمة الساحرة ، ومشهد المدينة الجميل يمتد أمامى على مدى البصر :

ـ لقد قتل شرطى فى القرية التى أسكنها ٠ فقتل فى الليلة الموالية مائة عربى ، وتركت جثثهم ملقاة فى البطحاء ، ولما كان الغد أعلن الحداد العام ٠٠٠ وقال لى الصبيان والصبيات :

ـ هل هذا من العدل ؟ واحد يفدى بمائة عربى ، هل هذا قسطاس مستقيم ؟

ثم يقبل بعضهم على بعض يتهامسون ، ولكنهم يقلعون عن الحديث حالماأقبل٠ وهم مع ذلك لا يخلون من لطف ٠ فلقد قالوا لى مرة :

ـ سيدتى ، لا تبرحين منزلك اذا كان الغد ٠٠٠

ومن الغد القيت قنبلة يدوية فى القرية ٠٠٠ انهم جميعا عناصر لجيش الفلاقة فى المستقبل ٠ ولقد وجدتنى بينهم يوم الثلاثاء فى شهر ماى سنة 1958 ٠ وما هى الا ان قالت لى المديرة فجأة :

ـ اسمعى انهم يغنون نشيد الفلاقة ٠

والآن هو ذا الطبيب ، ويبدو لى أنه مصاب بشيء من الجنون ومن يدرى ، لعل فى رأيه بعض الصواب ٠

ـ كل سنة يولد 800 ألف طفل عربى ، فانظر ما سيكون الامر بعد عشر سنوات ، بعد عشرين سنة ٠ هذا ما يسمى ارتفاع نسبة المواليد بصورة عجيبة ٠ فماذا يضر جبهة التحرير ان هى خسرت عشرين الف قتيل أو مائة ألف قتيل فى السنة ؟ ففى كل يوم يولد من سيحلوا محل القتلى ٠ هناك مثلا : تصور أن الجبهة تأمر قائلة : على كل الاطفال الذين تتراوح سنهم بين السابعة والخامسة عشرة أن يتجمعوا فى البطحاء هل تعلم كم سنشاهد هنا ، فى هذه القرية الصغيرة ؟ 35 000 شخص ٠ وما ذا عسى أن يفعل الشرطة ، وجنود المظلات ضد 35 000 طفل ٠٠؟

ـ لقد خسرنا الصفقة : هذا أمر لا أخفيه عليك ٠ فالاعداد فصيحة غير

معجمة . وعند ما تنتصر جبهة التحرير الوطنى ، فستقيم تماثيل فى كل قرية . سوف لا تقيم تمثالا لفلاق مجاهد . لا ، بل تمثالا لعربية بادن البطن . فهى المنتصر الحقيقى !

وقال لى راهب قبل أن أرحل :

ــ طرحت يوما معلمة على تلامذتها الموضوع التالى فى درس الانشاء :

ــ ماذا تفعلون لو كانت الانظار لا تقدر أن تراكم ؟

لقد وجدت فى أغلبية الدروس الجواب التالى :

« لو كانت الانظار لا تقدر أن ترانى لقتلت الفرنسيين ، لان والدى ، وأخى ، وعمى ماتوا بيد الجنود الفرنسيين ...

ولقد قيل لى فى الجزائر ، فى الجزائر هذه التى تعيش على الاوهام :

ــ ما هذا الهذيان ؟ لقد كان الصبيان العرب عند ما أمر فى سيارتى ــ منذ سنة خلت ــ يسددون الى عصيهم . أما الآن فهم لا يفعلون شيئا من ذلك .

ليست هذه هى أول مرة ألاحظ فيها عددا من الذين يحادثوننى يجتهدون فى اخفاء حقيقة مزعجة .

النصر يشق طريقه

. وضرب ساكن مدينة الجزائر المائدة بجمع كفه وقال :

ــ جبهة التحرير الوطنى ؟ لقد اندثرت . فطريقة الجنرال شال Challe الحربية بمقاطعة وهران أسفرت على نتائج عجيبة ...

ــ هب جبهة التحرير تعمد الى استعمال الطائرات ؟

ــ ومن أين تنطلق هذه الطائرات ؟ من الصين !؟

ــ من المطارات التونسية فى أكبر الظن .

ــ أصارحك بأنى لست من أنصار لاقيارد Lagaillarde ولكن لا قيارد على صواب ... يجب رمى المطارات التونسية بالقنابل .

وبدأت بزيارة غرب الجزائر ، لنستثن وهران الساحرة ، هذه الوضاءة نهارا ، المنورة دوما فى الليل،والتى هى الوحيدة من بين مدن الجزائر التى أفلتت من قانون منع التجول ليلا . زد على ذلك ... اننا صعدنا الى المنظرة التى تشرف على المدينة .

ــ منذ سنة خلت ، منذ ستة شهور خلت كنا لا نجرؤ على الوصول الى

ذلك المكان • لم هذا اذن ؟ ولكن أنظر الى هذه القرية العربية والى غابة الصنوبر هذه التى نجتازها • ثم علمنا أن سيارة قد اتجهت اليها ، ثم ثانية ، ثم ثالثة ••• هكذا ترجع الثقة الى النفوس •

ثم أطلعونى بعد ذلك الحين الذى هو بصدد البناء ، وعلى شارع جبهة البحر• أمر يأخذ بمجامع النفس • عمارات شاهقة تبرز فى كل مكان •

ــ فقلت : والآن بودى لو أطلع على ما حقق لفائدة المسلمين •

ــ طبعى تماما ما طلبت !

وأطلعونى على منازل عصرية لائقة •

ــ والحى القديم ؟

ــ مجموعات البيوت العتيقة ؟ تأبى الا رؤيتها ؟ هيا بنا !

لم أجد متسعا من الوقت للاطلاع ، لان السيارة كانت تسير فى سرعة الاعصار•

ــ لم هذه السرعة ؟ فلا أرى شيئا •

ــ لقد وقعت اغتيالات فى هذا الحى يا عزيزى •

وبهذه السرعة كذلك مررنا بتلمسان • تلك المدينة الساحرة الشهيرة بأسوارها وبرج المنصورة الذى تتحتم زيارته • وكان السائق يزيد فى سرعة السيارة حالما تغيب عن ناظريه خوذة الجندى • وكانت الطرقات ــ فى جميع المناطق ــ مراقبة محروسة • ولا يمكن الذهاب ــ حتى بالنهار ــ الى عدد من الجهات كمسكرة بدون حراسة •

ــ الامن سائد بالمدن •• ولكنه مفقود بالآفاق حيث جبهة التحرير تتجول وتأمر وتجمع الاموال ، وتفرض مقرراتها ، فهى الحكم وهى المنفذ وبيدها السلطان • كل السكان مرغمون على أن يشاركوا فى الاعانة بدون أن نستثنى المعمرين • لاحظ يوم الاحد هذا : فهو هادىء • فالطرقات من بلعباس حتى وهران تعج بالناس • فمنهم من يقصدون الى مشاهدة سباق الثيران ، والآخرون الى مشاهدة مباراة الكأس • لقد عدنا الى الخروج ولكننا لانجرؤ بعد على أن نستقل الطرق الجانبية • وعندما ياتى الليل ، وقبل أن يأتى بوقت طويل ، نسرع فى العودة ، الحذر ، الحذر صار عندنا طبيعة ثانية •

ثم ذهبت الى مقاطعة قسنطينة ، ووصلت الى مطار تلرقاما وكان الجند يحرسه • فسألت أصدقائى :

ــ هل حقا أن جبهة التحرير الوطنى قد بادت ؟

ــ ومن أعلمك بهذا ؟

ـ أعلمونى بذلك فى الجزائر العاصمة ٠

ليأت أصحابك بالجزائر العاصمة الى هنا ، فالحزب دائرة على بعد ثلاثة كيلو مترات من قسنطينة وفيليبفيل وعنابة ٠٠ فالفلاق قوى ، قوى عزيز ، أنظر الى جنودنا الصغار ، انهم لا قبل لهم بهذا ٠ فالفلاق مشاء صبور ، ومجاهد ومغوار ، ورام عجيب ٠ هم أقوياء ، أوكد لك هذا ٠ فلقد عطلت عدة مناطق تعطيلا كاملا ، منطقة كللو Callo مثلا ، على شاطىء البحر ٠

وصمت قليلا ثم رجع الى مواصلة حديثه :

ـ كللو : ان الجيش لم يعد يجرؤ على الذهاب اليها ٠ فالمدينة تمون بطريق البحر ، بطريق البحر لا غير ٠

ـ وحركة السير فى الطرقات ؟

ـ مرضية ما بين قسنطينة وفيليبفيل ، الا أن الطريق موصودة ليلا من الساعة السادسة مساء ٠ لا نذكر الطريق الرابطة بين فيليبفيل وعنابة على طول 120 كيلومتر ، فهى لا تخلو من الاخطار حتى فى النهار ٠ فمناطق الامن ضيقة جدا ٠ أما خارج هذه المناطق فالحذر الشديد مطلوب ان كان الكف عن الخروج غير ممكن ٠ فلقد وقع اعتداء منذ أيام ، فى طريق كروبس ، على بعد سبعة كيلومترات من قسنطينة ٠ نحن لا نخرج من السابعة والنصف مساء ٠ سترى قسنطينة ٠ الناس يتجولون فى هدوء ، وسرعان ما يفاجؤون بطلقات المدافع ، تسفر عن أجسام طريحة ملطخة بالدماء ٠ وكان الناس يبدون آراءهم فى مثل هذه الحوادث ٠ أما الآن فانهم يمرون سراعا للاشتغال بأمور أخرى ٠

هكذا تنقضى حياتنا اليومية ٠ اعتدناها بدون أن نفكر فيما سيفجؤنا به الغد ٠

سيارتنا تسعى الآن بكامل السرعة صوب البحر ، وفى العلبة الامامية قنبلتان يدويتان قد تصلحان اذا طرأ طارىء ٠

ـ أنظر هنا ، على اليمين ، هى ذى الطريق التى يسلكها الفلاقة ليتحقوا بقبلى عن طريق تونس ٠ سطيف : أخطر منطقة ٠ وتوجد غرداية بقرب سطيف ، وهناك اذا ما انتحى الانسان مكانا متواريا قصد الذهاب الى البول ، فحماية جند مدججين يكاد يكون امرا ضراريا ٠

وسألت فى وداعة :

ـ الى أى الاماكن تذهبون فى فيليبفيل أيام الآحاد ؟

فذهبوا بى الى شاطىء البحر ، جان دارك شرقا ، مركز جنود المظلات التابعين لبيجار ، سطورا غربا ٠ فى الجملة عشرون كيلومترا ٠

ـ وبعد سطورا ؟

ـ بعد سطورا تبدأ مملكة جبهة التحرير ، فهم يقومون كل صباح بتحيـة العـــلم ٠

ـ هـل تريـد أن تـرى الحـــدود ؟

فارقنا السيارة ، وسرنا على الاقدام بعض مئات من الامطار ، وبلغنا الى باب من حديد يسد نفقـا

ـ ولكن كيف تعيشون هنا ؟

ـ هذه هي الحـدود ٠

ـ تسأل كيف ؟!

قبل اليوم لم نكن نقدر حتى على الذهاب لميدان اللعب بكرة اليد ٠ ثم أخذنا نعود شيئا فشيئا للذهاب الى هذا اللعب ٠ الا أنه يجب أن لا نفكـر قط فى الذهاب الى عنابة بواسطة الطريق العادية ، أما الذهاب الى الجزائر فأمر مفروغ فى استحالته تماما بسبب أبواب الحديد ومضاريق نحن نتنفس برئة واحدة : هى قسنطينه أو البحر أو المطار ٠٠٠ التبعية تعود علينا فى الحقيقة ٠ فنحن نتشجع عندما يكثر عدد السيارات فى الطريق ولكن عندما تقفر طريق مـن السيارات ، فالجبهة هى التى تستولى عليها ٠

ولاحظت نفس الحالة فى عنابة ٠ وحالما وصلت اليها سألت ـ وقد استولى على نوع من مزاح حزين لا مناص منه فى الظروف التى تشتد فيها الحيرة ـ فقـلت :

ـ أين هو الفولاذ السائل ؟ أريد أن أرى الفولاذ السائل ٠

فأشاروا الى مكان قصى كان المهندسون يعملون فيه ، ثم ذهبوا بى الى مطعم على شاطىء البحـر ٠ ورأيت البحر من خـلال سياج ٠ وكانت كل النـوافذ محاطة بمثل هذا السياج اتقاء من القنابل اليدوية ٠ ولكن فترات العشاء كانت مرحة جدا ٠ فهم يرون البحر ويغفلون عن السياج ٠ آه يا عنابـة الحزينـة ٠ وفى آخر يوم قال لى صاحبى الذى رفقنى الى المطار :

ـ تلك هى حياتنا ٠ ترى أن نطاق نشاطنا محدود ٠ لا تتعدى كاب دى قارد على بعد ١٥ كيلو مترات أو الاييروبور على بعد سبعة ٠ فتحى هنا اختطف ، فى رابعة النهار ، أحد الاعيان ٠ فحتى هنا،عندما تأتى الطائرات ليلا تقوم سيارتان رشاشتان ـ وأنوارهما مطفأة يخفر ـ المارة حتى المدينة ٠ ولك أن تسألنى لم أتيت مع ذلك لمرافقتك ؟ ان الخروج الى المطار هو فرحة عندنا ، اذ يخيل الينا أننا نسعى الى حيث الحرية ٠

وأماط الرجل قناعه فجأة ٠ وها هو الطبيب من جديد ، رسول الشقاء :

ـ لقد أسأنا معالجة المشكلة ٠ والآن كل شىء على ما يرام ٠ الامن ؟ لقد رأيت

ما معناه هنا • ماذا أقول لك : ان صبيتنا ليسوا فى مستوى مهمتهم • الفلاقة ذئاب • وعند ما يطلقون نيران أسلحتهم ، فانهم يفعلون ذلك بكل الحزازات التى تنشأ فى الجهاد • من يقابلهم : الصبى (الفرنسى) الذى ودعه أبوه فى محطة القطار قائلا : « عزيزى بنى ، لا تكن بليدا ، الجزائر مالنا ، والجزائر أرجع الينا » • والبنى العزيز لا يفكر ـ حالما يصل الى هنا ـ الا فى الرجوع • ترى الفرق • ما العمل ؟ لا شى •• لقد خسرنا كل شىء •• كان علينا أن نقول لهم فى سنة 1945 : تريدون الاستقلال ، دونكم وهذا الاستقلال ، ولكننا مستعدون ـ ان شئتم ـ أن نعينكم مدة من الزمن • ماذا فعلنا عوض هذا ؟ قتلنا منهم 35 000 شخص فى سطيف وغالما ، الثامن من ماى 1945 ، ما أحزنه يوما • وأقول هذا لانى مسيحى تقدمى •

ما أسود ميثولوجيا التاريخ • لا ينسى أحد شيئا فى هذه الارض المتوحشة • فاليهود لم يندمل جرحهم بعد من جراء حملة قسطينة 5 أوت 1934 ، والمسلمون لم ينسوا حملة الابادة التى شنت ضدهم فى 8 ماى 1935 ، والمسيحيون لا يمكن أن ينسوا حركة التمرد بتاريخ 20 أوت 1955 •

ـ لقد مشيت فى يوم واحد وراء جنازة ضمت 64 نعشا • لم أكن أعتقد أن هذا أمرا محتمل الوقوع •

ـ فمن يا ترى سيكسر هذا الحاجز من قلز ؟

الشعب الممزق

تشهد الجزائر اليوم حركة واسعة النطاق • فالاعمال سائرة سيرا عجيبا ولقد أكد لى هذا الامر حيثما حللت • سألت فى هذا الشأن أحد العدول ، فأجابنى بعد تحرز أول الامر :

ـ المال كثير • مليار أو ملياران فى اليوم ، هذا أمر يترك أثره الجزائريون يرصدون أموالهم بأم الوطن • وأم الوطن ترصدها بالجزائر • ماء سخن ، ماء بارد : وهكذا تدور الامور ، قصة مجانين •

وعلى كل سواء أكان هذا هو السبب أم كانت التهدئة الجزائرية هى السبب ، فمن المحقق أن الذعر الذى أخذ يستولى على جميع طبقات الشعب قد انتهى ، وأن حركة الهجرة قد وقفت الا أن هذه الثروة العظيمة تكون نامية عظيمة فضيعة نتجت عن آلام الشعب الجزائرى •

لقد زرت قرية صحبة المنفذ العدلي • أردت من وراء ذلك الاطلاع على طريقته في معاملة السكان • وقبل أن نبلغ القرية بقليل لاحظت مركزا للتجمع يرفرف فوقه العلم الفرنسي ، عملية الحجز الاولى : لا سبيل الى القيام بها • ان الجرارة قد احترقت ، على بعد 8 كيلومترات • قال حارس الغابات : سبب ذلك أنه أبى البذل ، هبه بذل لهم ما يطلبون : فانه يصبح تحت حكم القانون الجنائي • واذا لم يبذل ، فان جرارته تحرق • وأضاف هامسا :

ـ لقد قدموا الليلة البارحة الى مركز التجمع •

ـ كيف ؟ الى هنا ، على بعد 500 متر من قرية محروسة بالعساكر !؟

ـ لقد قدموا الليلة البارحة ، للاستعمال وللتموين •

ما أملـه انقساما ! ما أفجعـه تمزقا • الناس مضطـرون الى أن يجـاروا الفرنسيين في النهار وجبهة التحرير في المساء !

وقال لي العدل المنفذ :

ـ اني أعرفهم ، انهم متأدبون ، انهم أمناء • أقول لهم مثلا : انك مديـن بكذا ••• فيسددون ديونهم بانتظام • ولقد وجدتني مرة مضطرا الى أن أذهب الى فـ ••• ممتطيا سيارة الحاكم ، وكنت في حاجة الى سائق ليرجعها • فلم أجد سوى سجين عربي خارج من سجنه فخاطرت • وعندما وصلنا الى فـ ••• قلت للسائق : ان السيارة ليست لي ، هي للحاكم ويجب أن ترجعها اليه والا فاني سأتحمل كل المضايقات • ولقد خفت كثيرا • وفي النهاية لم أندم عـلى ذلك ، لان السجين قد أرجع السيارة للحاكم • وكان علي ـ يوما آخر ـ أن أقوم بعملية حجز في دوار ، ولكن عند ما وصلت الى المكان ، وجدت أن نهرا في حالة فيضان قد حال بيني وبين الدوار • فناديت ، فأتى رجل ، ثم أتى المسؤول بعد قليل ، فأعلمته بالامر • فغاب ربع ساعة ثم رجع واجتاز الوادي ، وكان باحدى يديهمذياعه ـ وهو ما أتيت لحجزه ـ وبالاخرى طبق وقال : اني أريد أن تشرب الشاي عندنا لانك وصلت الى هنا • هذا والحرب تدور رحاها • فتعجبت بالغ العجب • فلم أحجز المذياع ، واكتفيت بوعد قطعه على نفسه ، ووفى به •فيجب أن نوليهم ثقتنا • والا فاننا نخلق الفلاقة من حيث لا نشعر•

يوجد جرم خفيف في الجزائـر •• هو جرم رفع الاموال للاعانة ، والـذي يسمونه في تفخيم : التئامر على أمن الدولة الخارجي • لا يقدر أحد أن يفلت من

دفع الاعانة سواء فى ذلك الشعب المسلم والمعمر الكبير الذى يريد أن تحفظ منتوجاته الفلاحية ٠

يوم الجمعة فى تلمسان هو يوم الجبهة فى المحكمة ٠ فالبطحاء تعج بالنساء المقنعات وعبثا تحاول الشرطة ابعادهن ٠ أتين الى هنا ، هذه لاخ لها ، والاخرى لاب ، والاخرى لزوج أو قريب ٠ وحالما يعلم خبر تتناقله الشفاه فى سرعة : لقد رأوا أباك أو أخاك أو زوجك ٠ أما اذا أفرج عن أحدهم فالولة الحادة تحيى هذا النصر ٠

وسألت فتى مسلما لطيف الوجه :

ـ ما هى العقوبة التى تسلط على من يدفع الاعانة ؟

ـ تتراوح بين الثلاثة أشهر والثلاثة أعوام ٠ لقد كنت ذا حظ وافر ، اذ لم يحكم على الا بستة شهور مع اسعافى بالتأجيل ٠ ولقد اضطررت الى أن اسلم مرة خمسمائة فرنك تحت الضغط لشخص كان يجمع الاعانات المالية ٠ الحكم أمر قد لانعيره اهتماما ٠ أما التعذيب فهو الطامة الكبرى ٠ الانبوب ٠ لا تدرى ما ذلك ؟ يريدون أن أعطيهم أسماء ٠ وليس لى أسماء لاعطيها ٠ ولقد محوت ذلك من ذاكرتى الآن ٠ كان المشكل قبل اليوم مشكلا اجتماعيا بحتا ٠ فصار اليوم مشكلا سياسيا مع الاسف ٠ فتطور فرحات عباس مثلا فى هذا الشأن أمر مفجع ٠ فقد كان قانعا بالمساواة سنة 1936 وكان لا يطلب شيئا ـ فى سنة 1945 ـ سوى الادماج ٠ وها هو اليوم يطالب بالاستقلال ٠ ونحن هنا ، ماذا يجب أن نفعل ؟ لقد طلب منا فى العام الماضى أن نصيح : « يحيا دى قول ! » وفى هذا العام : « يسقط دى قول ! »

وصمت ونحن نسير فى الشارع ثم واصل حديثه قائلا :

قد ينجح دى قول ؛ فالجماهير المسلمة تثق به ٠ ان دولة جزائرية لاتقدر على حد المشكل الاجتماعى ٠ نحن فى حرج : بين غلاة الاستعمار من جهة وجبهة التحرير الوطنى من جهة أخرى ٠ أنت الذى لى ذكرت مثالا أعجبنى : المسلمون موجودون وسط سيجارة تحترق من كلتا طرفيها ٠

ـ والآن ، هل لايزالون يطبقون التعذيب ٠

ـ لايزالون يطبقونه ٠ كل الناس يعلمون ذلك وكل الناس يلزمون الصمت ٠ ـ لا يمكن ، بدون شك ، أن نحقر من المجهودات العظيمة التى

قامت بها بعض البلديات : بناء محلات للسكنى ، ومدارس ، ومستوصفات ، والاعتناء بالتموين • لقد رأيت أحياء جميلة بنيت للسكان الاصليين ، واسعة، كثيرة النوافذ • ولكن قيل لى :

ـ انهم يريدون أن يظفروا بما فاتهم من الزمن • ولكن هل هذا لايزال ممكنا ؟ انى أعرف قرية ••• لقد بنيت فيهـا مدرسة سنة 1880 ، وكـانت هذه المدرسة فى أكبر الظن أولى المدارس الفرنسية • فالاجـداد يحسنـون التحدث بالفرنسية • لنسرع فنلاحظ أن هـذه البقعة مركـز الغـلاة فـى الوطنية • كل هذا ناشىء عن أنانية المعمرين •

كثيرا ما سمعت الناس يذكرون هذا السبب : انانية المعمرين ، كـان المعمر المسؤول الوحيد عن فضاعة العالم وعن الحوادث الدامية ، المعمر هـو كبش الفداء لكل ذنوبنا •

ـ هل تعلم ما هو ربح معمر متوسط ؟ المعمر الذى يملك 200 هكتار من الكروم والقمح ؟ ربحه يتراوح ما بين 15 و 20 مليون بعد طرح جميع المصاريف والاداءات • ثم هو يدفع 400 فرنك أجرة الفلاح الذى يعمل طيلة 12 ساعـة فى اليوم • ولقد ارتفعت هذه الاجرة شيئا ما منذ 13 ماى • هؤلاء المعمرون لا يرغبون عن أى شيء ، ولا يفارقون اى أرض من اراضيهم ، ويدفعون ثمن اشتراكهم فى جبهة التحرير الوطنى • عند هؤلاء الناس ، المصلحة هى العليا لاكلمة الوطن • ولقد حددت الحكومة قدر ألف فرنك مقابل حماية هكتار مدة سنة • فثار المعمرون لهذا القانون ، واحتجوا ونجحوا فى نهاية الامر على ارغام الدولة بأن تشارك بنسبة 80٪ • هؤلاء المعمرون لايرحلون أبـدا•سوف يجدون حلا مع من سيكون النصر حليفه •

ولقد سمعت صيحة طبيب آخر ، طبيب من الجزائر العاصمة هذه المرة •

ـ لو كنت مسلما ، لكنت من انصار جبهة التحرير الوطنى ، للعار الذى يتصف به النظام الاستعمارى • فالثورة الجزائرية ـ ان نظرنا اليها مـن هذه الناحية ـ عمل صالح • فهى التى كانت سببا فى وضع حد لحالة غيـر مقبولة ، لحالـة استعماريـة لا تحتمـل • ولكـن الاستقـلال الان ، امـر مستحيل • الاستقلال يعطى اليوم فى خضم الدماء والحرب ، وينتزع مـن فرنسا • ليس سوى كارثة : كارثة لفرنسا ، كارثة لمليون ومئتـى الـف كارثة للشعب المسلم ، كارثة لفرحات عباس نفسه • الاستقلال يعطى يوما

ما فى المستقبل ؟ نعم ! ويحقق حسب مراحل ، عندما تأتى اليه فرنسا طوعا لاكرها · ان قوة دى قول كامنة فى قوله : علينا الا نحدد السياسة الجزائرية ؛ كل شىء ممكن اذن · ان قوة دى قول كامنة كذلك فى مشروع قسنطينة ، ان حققه ، اذ سنرى لاول مرة الصناعات الثقيلة تدخل بلادا مستعمرة : وهذا يعنى الشروع فى مشروع القضاء على الاستعمار ··· أما بالنسبة لك فنحن السهل عليك أن تتظاهر بضمير فاضل وأنت على بعد 2000 كيلو متر من الجزائر · ولكننا هنا فى حالة حرب ، فى حالة حرب ، هل فهمت ؟

وهذا صوت آخر · اقول هذا الكلام وأنا خجل من ذكره :

ـ هل تريد أن أقول لك شيئا : التهدئة ، هذه حماقات لاتجدى نفعا الحقيقة الوحيدة هى الارهاب المعاكس · واحد يفدى بعشرة · حل على النمط المجرى ! لقد قبله العالم ·

الطريقة

الفداء ليس واحدا بعشرة · لقد سمعتم مرارا يقولون « واحد بمائة » وهاك المحادثه التى حضرتها ·

ـ لقد ذكرت آنفا القرية التى قتل فيها مائة عربى أخذا بثائر شرطى هل هذا حقيقة ؟

ـ وحقيقة أيضا أن كل الذين قتلوا أخذا بالثأر هم من جبهة التحرير الوطنى

ـ كيف علمت ذلك ؟

ـ كل الناس يعلمون ذلك ·

ـ هب كل الناس يعتبرون جميع هؤلاء الافراد من جبهة التحرير ، فهل هذا دليل كاف ؟

ـ لاتوجد طريقة أخرى يمكن الالتجاء اليها ·

ـ كان من العدل أن يقدموا بين يدى المحاكم لا أن يقتلوا ·

ـ هل تقبل أنهم قتلة مجرمون ؟

ـ نعم ، لقد رأيت أمورا فضيعة ·

ــ اذن ، ما يفعل بالقتلة ؟ يقتلون بدون حكم ، وكان علينا ان نفعل ذلك منذ البداية ٠

ــ لست على رأيك ٠ ان محاكمة القتلة أمر واجب ٠

لقد سمعت فى امكنة أخرى (لافائدة فى ذكر الاسم) ، نفس الجواب تقريبا : ولقد أحسست بشىء من التمرد ، « عقلية الوطن الام » كما يقولون ! ورفع الرجل عينين خضراوين وقال لى هامسا :

ــ هل تعلم ما معنى « شغل الخشب » ؟ لا !؟ يطلب القيام باعمال فى الغابة٠ ثم يساق العرب الى صخور جاثمة على شاطىء البحر ٠ وهناك يرمون بالرصاص كما يرمى الهدف ٠٠٠ أما اذا كانت الجريمة أمرا مفروغا منه ، فعند ذلك يحالون على المحاكم ٠ واذا لم تكن الجريمة الا ظنا ، فماذا تريد ان نفعل بهم سوى رميهم ٠ والا فالمحكمة تبرىء ساحتهم ، او باريس تعفو عنهم ٠ وهذا من شانه أن يشجع حركة العصيان ٠٠٠ انظر الى هذه القاعة وهذا السياج هبنا نوقف عربيا ــ وكثيرا ما يكون طفلا يحمل مفرقعات ٠ فالمحكمة لاتفعل شيئا ٠ لذلك نحن نبقيهم عندنا ٠ رهائن ٠ ؟ ليس بالمعنى الاتم لكلمة رهائن٠ فهل توجد وسيلة حربية أخرى ؟ أنا عضو فى الوحدات الترابية (١) ٠ عندما امر ليلا ببعض المناطق أسمع بكاء وعويلا ٠ ان قلبى يتفطر ٠ ولكن ما العمل ؟ هل توجد طريقة أخرى ؟

هو أب صالح ، او أخ صالح ، أو زوج صالح ٠ والجزائر ؟ الجزائر بعيدة ٠

ــ نحن هنا على مسافة بعيدة بعيدة ٠ لسنا مزودين بالاخبار الكافية ٠

لقد قيل لى لاترى ٠ بعد الاغتيال الذى وقع فى فيليبفيل ، الا حقولا قد حصد زرعها بتاتا ٠

والاولاد الصغار ، الاولاد الصغار الذين يحاربون من اجلنا ، نيابة عنا ، ماذا يفكرون عند ما يرجعون الينا ويقبلون أن يحادثونا ٠

ــ لقد حوصر الجبل سنة 1955 ٠ الا اننا لانتمكن من الظفر بهم وهم احياء رغم النابالم Napalm ؛ والموتى يدفنون بواسطة المجرف ٠

ومن الناس من تثور حفيظتهم لهذا ٠٠٠ ماذا تريد أن نفعل ٠ أما الثوار ، فلهم الحق ، انهم يدافعون لنيل استقلالهم ٠

ــ لكن لماذا يستعمل النابالم والمجرف ؟

United territoriales = U.T. (1)

ـ لانستعملهما نحن ، ولكنه اللفيف الاجنبى ٠

والآن ، هو ذا يبوح بسره الاخير ٠ لقد أخذ يتكلم فى بطء قائلا :

ـ ان كان الالمان برآء ، فنحن أيضا برآء ٠ أما اذا كان الالمان مجرمون ، فنحـن مجرمون كذلك ٠

ـ ماذا تعنى ؟

ـ نعلم أنه ، بعد كل اعتداء ، تشن حملة عنيفة للاخذ بالثار ٠ ومـع ذلك فنحن نلزم جانب الصمت ٠ الارهاب ، والتعذيب ، والارهاب المعاكس ، كل هذه أمور صارت عناصر مندمجة فى ضمائرنا ٠

ونظرت اليه تحت النور الحاد ٠ ترقرقت عيناه بالدموع ، وواصل حديثه :

ـ لقد تساءلت مرة ـ فى احدى مقالاتك كيف ان شعبا عظيما ، كالشعب الالمانى ، هذا الشعب الذى انتج قوت Gœthe ، أقام طريقة مضبوطة مكنت من القضاء على ستة ملايين من اليهود بدون أن يرتفع صوت واحد بالاحتجاج ٠ أما أنا فأسألك : كيف وفرنا ، نحن الفرنسيين ، الاسباب لتدخل طريقـة كهذه فى حيز التطبيق ؟ لقد ذكرت لى مقالته لك تلك المرأة الشابة : واحدبمائة هذا حل وسط ٠ انى قادر على ان أعلمك بما اطلعت عليه فى عدد من الملفات الجنائية : يبلغ عدد الذين يقتلون هكذا الخمسة عشر ، وكل هؤلاء القتـلى أعدموا حسب القانون : قتلوا وهم يحاولون الفرار ٠ وما من احد يشتبه عليه الامر : لا المحامى ، ولا الحاكم ، ولا وكيل الدولة ٠ ولقد قال لى مرة عضو من المحكمة : هذا الرجل الذى يتبعه القانون لقيامه بجمع الاموال ، ليس هـذا مكانه ٠ ما معنى هذا الكلام ٠ هذا مما يمكنك فهمه ، وأعرضت عنه بدون أن انبس بكلمة ٠ وقال آخر بعد حملة دامية قصد الاخذ بالثائر : يجب أن انهب الى هناك لاضع حدا لذلك ٠ ومعنى هذا الكلام : الاخذ بالثار فى دون مبالغة ، فعلينا ان نبقى فى حدود الاعتدال الفرنسى ٠٠٠ أعرف ، أعـرف كل ما يمكن أن يقال ، من أن الجبهة هى التى بدأت بالحـرب المبيـد (ولكن يجب أن لاننسى الخمسة والثلاثـين قتيـلا فى سنة 1945) وهب هذا الامـر صحيح ؟ فهل لنا الحق ؟ ٠٠٠ ونحن نعلم ، ونحن نمسك عن التشهير بذلك ونحن لانقدر على أن نرفع الاصوات ٠ كلنا اذن فى الجريمة سواء ٠

والآن ماذا عساى أن أضيف الى هذا ؟ لقد وجدت فى الجزائر كل الآراء بجميع

اتجاهاتها ، ابتداء من الرأى المعبر عن المغالاة فى موقف دى قول حتى تصل الى مذهب منداس . انى اعتقد أن من حادثونى توخوا الاخلاص والصراحة . واذا ما سمعت هنا وهناك أحاديث لم يعد اصحابها يفقهون طابعها المفجع ، فلان عنصر الانحطاط كان قد اندمج فى ضمير هزيل . ولكنى سمعت كذلك - هنا وهناك - احاديث تنم عن طيب نفس وعلو همة ، أثرت فى نفسى احسن الاثر فالله أشكر .

الحرب - لانها حرب حقيقية تلك التى تدور رحاها هناك - سيكون الانتصار فيها أو الهزيمة فى الوطن الام . سنخرج منها منتصرين أو منهزمين حسب ما سيقرره الرأى العام فى الوطن الام من أن فرنسا يمكن لها أو لايمكن أن تلجا لاستعمال اساليب الابادة . سنخرج منتصرين أو منهزمين حسب ما سيراه الضمير الفرنسى من امكانية دفع ثمن الانتصار أو عدم أمكانيته . الا ان شيئا صار اليوم أمرا واضحا : مهما كانت النتيجة ، فان الفاشستية ستكون نهاية المغامرة ، اللهم الا اذا حدثت معجزة ...

اللهم الا اذا حدثت معجزة . ويجب أن نكرس الجهود - كل الجهود - لكى تحدث هذه المعجزة . كل الجهود بما فيها الدعاء ، ذلك الدعاء الحار الذى يتصاعد من حرارتها الى السماء . ومعنى هذا ان انحطاطنا المشترك فى الحالة الراهنة قد يجعل من هذه المعجزة امرا صعب المنال

اقرأ في العدد القادم :

- البطولة العربية وعوامل نشاتها
بقلم مصطفى الاشرف
- الشيخ محمد بوشربية
بقلم محمد الحليوى
- مرض ابى القاسم الشابي
بقلم الدكتور محمد فريد غازي
- وجوه
بقلم البشير المجدوب
- النقرة مسدودة (اقصوصة)
بقلم البشير خريف
وتنفا من يوميات ابي القاسم الشابي

الإطار الجغرافي لتاريخ الجزائر *

بقلم أميل فيليكس غوتيه

تعريب وتقديم الدكتور محمد فريد غازي

لا شــــك أن على مفكرى المغرب العربى الكبير واجبات فكرية متنوعة ، أهمـها فى رأيى « التزامهم » نحو وطنهم العـزيز • وهـذا الالتزام متنوع هو أيضا • ومن تلك الواجبات كتابة تاريخ ــ جدى لا هزلى ، علمى لا « أدبى » ــ تاريخ عام للمغرب الكبير • وهو واجب لم أسمع أننا نوينا الشروع ولا حتى التفكير فيه • وهـو مشروع سهـل ميسور ، لانه سيكون حتما ثمـرة المشاركة بـين عشرة أو عشرين من العلمـاء المفكرين ، المختص كـل واحد منهم فى فترة من فترات هـذا التاريخ الكبير • ولكن لا يكفينا أن نكتب هذا التاريخ ، بل علينا أيضا أن نفسره (I) ، وأن نستخرج لبه ، وأن ندرك قـواه الغامضة • ومن حسن الحظ ان نملك فى ابن خلدون ، فكرا نيرا ، حاول وهو على عتبة العصر الوسيط متقدما نحو العصور الحديثـة ــ أن يكشف أسـاس قواعده ، فضمنها فى مقدمته •

ولكن الوقوف عند ابن خلدون ، خطل فى الرأى وعجز فى الفكر • فلقـد وجد فى عصرنا هذا ، علماء أجلاء ، حاولوا هم أيضا تفهم هـذا التاريخ ، بعضهـم بحركة البحث العلمى النزيه كفرنان برودال Fernand Braudel ، وروح انسـانيـة نهتف لهـا ، وبعضهـم تغلبت عليهم النزوات الاستعمارية وحب الهيمنة • ومن هؤلاء اميل فيليكس غوتيى E. F. Gautier فى حقل التاريخ • ولا شك أن الاستاذ فيليكس غوتيى بمؤلفاته القوية (2) ، رغم طعناته المتعددة فى كرامة

* E. F. Gautier : Le Cadre géographique de l'Histoire en Algérie, dans *Histoire et Historiens de l'Algérie.* Paris 1930 ص 35 ــ 17

(I) وهذا التفسير يجد أول نواة له عند عبد الرحمان بن خلدون فى **المقـدمـة** ولكن ابن خلدون ، بدوره ، رجل مجهـول ، رغـم الدراسات المتعـددة (الفارغة أيضا) ، ويسر أسرة الفـكر أن تعلن عزمها على اخراج عدد خاص به وبفكره الاصيل ، فى الاشهر القادمة • وفى عصرنا هذا ، لا بد أن نذكر المؤرخ الانقليزى أرنولد توينبى Arnold Toynbee الذى يجد القارىء فى مؤلفاته كـ « الحضارة فى محنة » La Civilisation à l'épreuve باريس ، و « العالم والغرب » Le Monde et l'Occident باريس وخاصة « التاريخ ، محاولة التفسير » L'Histoire Essai d'interprétation ، باريس ــ محاولات تذكرنا بابن خلدون

(2) نشر غوتيى كتاب « عصور المغرب المظلمة » سنة 1927 *L'Islamisation de l'Afrique du Nord. Les Siècles obscurs du Maghreb.* ولكن الانتقادات المرة التى وجهها اليه الاستاذ ويليام مارسى فى المجلة التاريخية

المغاربة ، وتزيفه أو سوء تفسيره لمظاهر مختلفة من تاريخهم ، هو مرجع هام ، نويت منذ سنوات عديدة ، نقضه ، لانه آسفني ان أرى العاطفة تغلب عنده العقل ، والتحيز الجنسي يغلب عنده العلم ، فكانت دراسته هـذه ، ودراساته الاخرى ، تجمـع في آن واحد الصدف والمرجان ، وستطـالـع معـى هـذا الفصـل فتجـد فيـه رغـم تحيــز الرجل المقـوت ـ درة كريمة ، تخص التاريخ الجزائـرى ، واطـاره الجغرافى ، أرجـو لو ينبرى أحد المؤرخين الجزائريين ، فيرد عليـه ، ويظهر فى آن واحد محاسنه وعيوبه • فأهل مكة أدرى بشعابها • وأهل الجزائر أدرى بتاريخهم من غوتيبى • ولكن مزيته فى أنه سمح لنا أن نناقش آراءه وأن نجـدد نظرتنا لا لتاريخ أختنا الجزائر فحسب بـل لتاريخ المغـرب العـربى الكبـير ، الذى نرجو أن نكتبه عن قريب •

ان الجغـرافيـة علم ، أو ربما هى ، فى جزء ما ، فن يبحث عن مكانته المعينة وعن حدوده • وبعد ما درسته طيلة ثلاثين سنة (1) فانى لا أقدر على الجزم بأنى أدركت ادراكا بينا نيرا ما يعود الى الجغرافية كعلم والى الجغرافية كفن •

فنحن فى فرنسا ندرس الجغرافية فى كلية الآداب ونجمع بينها وبين التاريخ ، بينما هى فى غيرها من بلـدان الدنيـا ، ان صدقت معلوماتى ، معتبرة كمادة « علمية » : امتداد لعلم طبقات الارض (Géologie) وقد تكون كلتا النظريتين غالطتين • ولكن ان لم يكن علم الجغرافية نقطة وصل بين علم طبقات الارض وبين علم التاريخ ، فانى أعترف انى لا أعلـم ما هى ، لان الانسان والقـاعدة الترابية (Substratum) التى يعيش عليها امران لا يمكن أبدا أن يفرق بينهما ولقد أنشأنا فى الجامعات كراسيا للجغرافيا الانسانية (Géographie humaine) (2) وأخرى للجغرافيا الطبيعية (Géographie physique) • ولقد أدى انشاء هاته الكراسى خدمات جليلة • ولكنه سيصبح أمرا خطـيرا ان أدت دراسة أحـد هذين التيارين الفكر نحو الانعزال او اقامت بينهما حاجزا صفيقا لايمكـن خرقه • ولست اعتقد ان الجغرافية تستطيع ان تكون شيئا سوى الجمع بين هذين التيارين •

Revue Historique ، سنة 1928 ـ 1929 ، جعلته مضطرا أن يخفف من غلوائه وان يخرج بعد عشر سنوات طبعة جديدة منقحة ، تحت عنوان :
Le Passé de l'Afrique du Nord. Les Siècles obscurs du Maghreb, ، باريس 1937
ولغوتيبى دراسات أخرى منها :
1931 باريس ، *Le Sahara et Mœurs et coutumes des Musulmans,* باريس 1938
ويمكن للقارىء أن يطالع فى مقالة الاستاذ ويليـام مارسى مجمل الانتقادات التى نوجهها شخصيا اليه •

(1) بجامعة الجزائر ، التى كان يحتل بها غوتيبى مقعد تاريخ شمال افريقيا بعد ما كان جغرافيا فى أول حياته •

(2) يجد القارىء فى دراسة جان برون Jean Brunhes *La Géographie humaine.* باريس 1956 (طبعة ثالثة) ، فصولا ممتعة عن شمال افريقيا ، وخاصة عن حضارة الواحات الصحراوية التى قضى السيد جان برون وقتا طويـلا فـى دراستها • وهذا الفن ، فن حديث لم يأخذ بعد المكانة اللائقة به

وان وجدت طالبا من طلابنا يستعد فى نفس الوقت لاجازة التاريخ ، ولا جازة الطبيعيات ، ويضيف اليها متابعة دروس « مدرسة الفنون المسظرفة» ــ قسم الرسم ــ فاعلم ان هذا الطالب قد هيئى تهيئة حسنة لدراسة الجغرافيا • انه من اللازم حقا ، ان يملك هذا الشاب مواهب متعددة ولكن وجود هذه المواهب فى شخص واحد ليس بالامر النادر ولا بالشىء الغريب • واصعب حاجز يعرض لخطاه ، هو الخجل والحياء • يلزم الشباب الجسارة حتى تخرق كل التقاليد العمياء وكل القوانين الحمقاء • فان الشبيبة ، مهما حدثوك عن جسارتها ، فهى ما تزال خجولة حيية ، تحترم التقاليد ، وتبحث عن « التبريز » (1) (بينما يلزم أن نسير نحو البحث والتنقيب) هذه الملاحظات العامة التى صدرت بها دراستى ربما اراها فى غير محلها ، وقد يكون من الطبيعى ان تحذفها من النص ، اسرة تحرير المجلة التاريخية Revue historique

غير انه لايشك شاك ولا ينازع منازع فى ان معرفه الارض قد ادت فى شمال افريقيا وفى الجزائر خاصة ، خدمات جليلة لعلم التاريخ ، اكثر من اى بلد آخر من بلدان الدنيا • وهذا يعود لاننا غير مزودين بالالات (آلات البحث طبعا) لدراسة تاريخ شمال افريقيا بمناهج تاريخية محضة •

أضف الى هذا اولا ان هذا التاريخ مقسوم على قسمين ، وانه يرتبط بقسمين مختلفين من العلوم لا رابط بالمرة بينهما • فالمؤرخون ذوو الثقافة الكلاسيكية واللاتينية ليست لهم روابط بالمرة مع المؤرخين المستعربين • فكيف نستطيع ، ونحن فى هذه الحالة ، ان نصور صورة كاملة للتطور ؟ (التاريخى فى شمال افريقيا) فالقرون الاثنى عشرة التى تلت سقوط الامبراطورية الرومانية خاصة لايمكن فهمها ، لاسباب عديدة منها لان علماؤنا المستعربين هم فقهاء لغة فحسب ولم تكن لهم بالمرة الهمة ان يكونو مؤرخين ومنها لان المراجع المعاصرة لذلك الحدث الهام الذى كان انتقال افريقيا اللاتينية الى افريقيا الاسلامية ،فيما يعود الى قرون اعالى العصر الوسيط غير موجودة عندنا • فهذه القرون (من الـ 7 الى الـ 12) انبأنا عنها، بصفة اجمالية ، مؤرخون متأخرون جدا ، عاشوا فى القرنى الثالث عشر والرابع عشر • ولنتخيل لحظه ما يمكن ان نعرف عن شرلمانى لوكنا نعتمد لمعرفة عصره على تاريخ وجيز كتبه معاصر لفرواسان Froissart (2) أضف الى هذا ان هؤلاء المؤرخين عرب • ان ريناں يتهمنا نحن الغربين ، باننا لانملك

(1) هكذا يندد الاستاذ غوتيى بداء « الشهادات » الذى أصاب المجتمع الفرنسى والذى كان عائقا فى كثير من الاحيان بين الاساتذة الشبان وبين التنقيب والبحث المثمر

(2) أى بعد ستة أو سبعة قرون •

حياة دينية بالمرة • وانه على حق ، ولكن العكس حق ايضا • فان الشرقيين هم ايضا على ضعف فى التاريخ لايتصوره العقل • وهذا فى الظاهر امر معقول لان الانسان لايستطيع فى آن واحد ان ينزع نحو المطلق والمعاد ، ونحو نسبية الاشياء فى العالم الواقع • والمؤرخون العرب يمتازون بهذا الطابع العام : انهم لم يحاولوا قط ان يربطوا بين الحوادث ، وان يفهموها ، وان يفسروها • فلم يتركوا الا حوادث رزنامية (I) ولكن هنالك مخالفة باهرة لهذه القاعدة اعنى ابن خلدون ، ذلك الكاتب العبقرى الذى ترك لنا حقيقة ، تاريخا لشمال افريقيا • ولكنه تاريخ كتبه فى اواخر القرن الرابع عشر ، أضف الى هذا ان ابن خلدون ، مهما بلغت عبقريته من القوة مداها ، فهو يملك دماغا شرقيا ، لايفكر كما تفكر ادمغتنا نحن (الغربيين) • فانت لاتقرأه كما تقرأ « تيت ليف » Tite-Live أو « بوليب » Polybe او حتى « بروكوب » Procope • فهو يحتاج الى ان يفسر ، وان يتعرض له بالبحث والفحص • هكذا ترى ان طبيعة هذه المصادر تبعث الخيبة فى نفس الباحث حتى لتستطيع ان تقول ان تاريخ شمال افريقيا الاسلامية تاريخ لم يكتب بعد • (2)

وبينما كان يتعرض المؤرخون لاكبر الخيبات ، كنت ترى اصحاب قيس الارض وطبقات الارض والجغرافية يتقدمون فى عملهم بمثابرة باهرة ناجحة فاصبحنا بفضل ذلك نملك اليوم رأيا مضبوطا بينا عن التراكيب الارضية فى شمال افريقيا • ومنذ اللحظة التى اصبحت طبيعة الارض حاضرة فى اذهاننا الارض التى هى مسرح الحوادث التاريخية ، يبدو لى أنه قد أصبح أقل صعوبة من ذى قبل النظر فى الحوادث التاريخية المزدحمة المشتبكة

ولعل اطرف شيء فى كيفية تخيل التاريخ من طرف دماغ شرقى ، هو انه يرى التاريخ — لا فى مفهومه الجغرافى — ولكن فى مفهوم انسانية تناسلية (« بيولوجية ») • فالخلية الانسانية والتاريخية فى ذهن الشرقى هى القبيلة والحلف او بمعنى آخر الجنس المتناسل غير الخاضع بالمرة لاية قاعدة ارضية او ترابية • وذلك يعود لانه فى جوهره رحل ، وانه ، من طرف آخر ، لم يتعد فى تطوره مرحلة القبيلة (3) بينما الخلية التاريخية البشرية فى ذهننا

(I) وهل ترك مؤرخوا أوروبا فى عصرهم شيئا آخر يختلف عن هذا ؟
(2) نوافق الاستاذ غوتيى على هذا الرأى • ولعل ساعة وجوده قد حانت •
(3) هذه النظرية غالطة فى كثير من وجوهها ، وعلى القارىء أن يطالع الانتقادات التى وجهها نحوها الاستاذ جاك بارك •

Jacques Berque : *Qu'est-ce qu'une « Tibu » Nord-Africaine* dans *Hommage à* Lucien Febvre 271 — 261 باريس 1953 ج I ص ص

كما يوجد محاولة جديدة فى تفهم القبيلة فى كتابه الذى عنوانه : *Les Structures Sociales du Haut Atlas.* • 1955 باريس

نحن (الغربيين) هي البلد والوطن الترابي ، والامة لايمكن فصلها عن حدودها، ويعود هذا الى اننا ورثة المدنية القديمة La Cité Antique (1) فالشرقيون يقولون مثلا « ابن جافت » بينما نقول نحن « الاوروبيون » ونستطيع هكذا ان نعتقد ان هذا الفارق الاساسي بين (2) الدماغين ، الدماغ الشرقي والدماغ الغربي ، ادى الى ان يلقى حجابا كثيفا على تاريخ شمال افريقيا الاسلامية . **ولكن ، منذ اللحظة التى ابصرنا فيها بوضوح الجهات الطبيعية** والولايات ، ظهر دور كل جهة وكل ولاية تاريخيا ، وبرز للعيان ،وظهر لنا تسلسل الحوادث فى تطورها ، تلك الحوادث التى كانت متشعبة ملتفة فى اليوميات الرزنامية (التى تحدثنا عنها)

وعلينا الآن أن نؤيد رأينا بأمثلة متعددة :

الاقسام الطبيعية الكبرى :

ادخل اباؤنا ما بين 1830 ــ 1840 ، وقد احتاجوا حاجتنا نحن الى « مقولات » بينه ، أدخلوا على الاصلاحات الجغرافية ، فيما يخص الجزائر تقسيما عاما فقسموها الى « التل » والى « الانجاد العالية » ولقد بررت البحوث فيما بعد شرعية هذا التقسيم ولو جزئيا .

فالتل Tell هو الحافة الشاطئية والتى قامت الانهار فيها ، على جهة البحر ، بنقب وتخريب .. فكانت النتيجة مظهرا جغرافيا Relief كمظاهر بلادنا ، والتمام النواحي حول اودية حسب نظام جعلته مشاهدتنا الاروبية مألوفا عندنا .

واما « الانجاد العالية Hauts-Plateaux فهي الارض الجنوبية الواسعة والتى وزعت عليها الانهار الاثرية على قاعدة وجهة الشط Chott ، وملاتها ، ــ فى اعماقها ، فى حدودها المغلوقة ــ غير قادرة على ان تحمل ماجرفته من التربة نحو البحر . فكانت النتيجة مظهرا جغرافيا متحد الخطوط ، وسهولا لا حد لها وهو امر يبدو لنا ، نحن الاروبيين ، امرا طريفا

وهذا التناقض بين الشمال والجنوب قد استرعى انتباه ابائنا ، لاول نظرة ، والتقسيم الذى قاموا به باق غير ان هذا التقسيم على صدقه،يبدو لنا غيركاف لفهم

---

(1) هذا رأى غالط ، لان الحضارة الاسلامية قد ورثت عن الحضارات العتيقة . فمدن دمشق ، وحلب ، وانطاكية ، وقرطبة ، وطليطلة ، واشبيلية ، والمدائن Ctésiphon الخ... مدن قديمة فى الحضارة ، ورثها الاسلام وأقام بها حضارته . ويعلم كلنا مدى تأثير ايران واليونان فى الحضارة الاسلامية . فمن الغلط المحظ أن تعد حضارة الاسلام أو حضارة المغرب الكبير حضارة بدوية . ألم تكن قرطاج وارثة روما ؟

(2) تجاهل غوتيي الاسماء الاسلامية التى تدل على ارتباط وثيق بالارض ، وخاصة بالمدن : البغدادي ــ البصري ــ القيرواني ــ الاشبيلي ــ الخ ... التى تدل على ارتباط روحي عميق بأرض معينة Substratum كما يقول .

حقيقة الارض الجزائرية فنحن نرى قسمة اخرى ، كبيرة اعظم اهمية من الاولى ٠

يرى الناظر فى خرائط الجزائر العامة التى وضعتها مصلحة الجيش الجغرافية سلسلة من الجبال تظهر له ظهورا بينا ، لانها تفصل ، اجمالا بين اللون الابيض (لون الفحوص الكبيرة) ، وبين اللون الاشهب (لون الجبال الذاهبة فى الارتفاع مذاهب شتى) ٠ وهذه السلسلة تشق الجزائر باسرها من بسكرى الى تلمسان ٠ وهى توافق واقعا جيولوجيا ظاهرا ، فحافتها هى ماسموه « بالهورست » الجزائرى Horst وهو يتفاوت فى الصلابة ، قد زحفت التموجات الجبلية Plissements montagneux نحوه فانكسرت عليه انكسارات متفاوتة ٠ وهذه السلسلة الجبلية لم تسترع انظار أى عالم حتى أنها لا تحمل اسما بالمرة ٠ ولقد اقترحت أن نعطيها اسما وأن نسميها سلسلة الحدود Chaînes du Limes (I) ، لانها من ادناها الى اقصاها ، تتابع ، فى ضفتها الجنوبية ، الحدود الرومانية Limes

وسلسلة الحدود هذه هى ، المحور الذى دار حوله تاريخ الجزائر ٠ وهى تفصل بين جهتين وتجعل منهما جزائرين مختلفتين بينهما ، كالاختلاف الذى يوجد مثلا بين وطنين اوروبيين لو ضما لبعضهما كألمانيا الى ايطاليا مثلا أو الى فرنسا ٠

وهذا الاختلاف شىء ملموس واقع منذ « ما قبل التاريخ » : فالمقابر السابقة للتاريخ ، كثيرة جدا ، وهى ليست فى هذه الجهة وفى تلك على شكل واحد ولا نمط متحد ٠

وان لم تتجاوز الهيمنة الرومانية ، التى دامت طيلة ستة قرون متوالية ، سلسلة الحدود ، فذلك لانها خضعت لقوانين عميقة قاهرة حقا

وهذه السلسلة تفرق اليوم بين جهتين تختلفان اختلافا كليا فى اساليب العيش ٠ فالرحل الكبار ، اصحاب النياق والجمال يعيشون جنوب هاته السلسلة ٠ اما فى شمالها ، فانك تجد اساليب مختلفة غير متحدة ولكنها على كل حال ليست بأسلوب قبائل الرحل ٠

واخيرا ، تفرق هاته السلسلة اليوم بين لغتين ٠ ففى جنوبها تمتد اللغة العربية بلا مزاحم ، واما شمالها فانك تلاقى ارخبيلات ملأى سكانا ، وهى تجمع كل ما تبقى فى الجزائر من متكلمى اللغة البربرية ، وعددهم على كل حال يقارب ثلث سكان الجزائر جميعا ٠

(I) الليماس Limes هو الحدود الفاصلة بين الامبراطورية الرومانية وبين الشعوب الخارجة عن سلطتها والتى كثيرا ما كانت تهاجم ممتلكات روما ٠ ولقد أقام الرومان ، على هاته الحدود ، فى افريقيا أو فى آسيا أو فى شمال أوروبا ، معسكرات يسكنها اللفيف Légion

فهى الحد بين التل وبين الانجاد العالية من طرف وهى سلسلة الليمس من طرف آخر • وهذان القسمان الكبيران يمكنان الباحث من ادراك حدود الولايات التاريخية الكبرى

نوميديـــــا

اقصى ما نعود بالبحث فى التاريخ نجد الانسانية الافريقية مقسمة بين الرحل الكبار ، وبين سكان يتفاوتون فى « الحضر » ولقد فرق القدماء بين « نوميديا » Numidia وبين موريطانيا Mauretania

اما النوميد ، Numides ، فهم الرحل الكبار : ويمتازون بخاصية تاريخية اساسية ، هى السيطرة السياسية الناتجة عن نظام عسكرى طبيعى مألوف عندهم : اى يتمتعون وحدهم بالقوة مالم يجدوا امامهم نظاما عسكريا اصطناعيا آخر نشأ عن دولة ــ والقبيلة الرحلية ــ دون ان يلزمها اسعداد خاص ــ هى طبيعة فيلق عسكرى ، خاضع لامير قائد ، هو رئيس القبيلة • وهذا الحد يمكن أن نطبقه على ماسينيسيا كما يمكن أن نطبقه على الامير عبد القادر •

غير ان هؤلاء الرحل الكبار الذين يملكون مثل هاته الاهمية الكبيرة فى تاريخ الجزائر ، قد انتقلوا ، منذ العهود القديمة ، عن مرابطهم • فلقد كانت مراتعهم فى القديم شمال هاته السلسلة • اما اليوم فلقد انتقلت الى جنوبها •

ومن السهل ان نفسر كيف حدث هذا الانتقال • وتفسيره يؤدينا حتما الى رسم تطور ارض نوميديا اجمالا •

نوميديا القرطجنية

ان وجود نوميديا القرطجنية ، الرومانية من بعد فى الحدود التى يقدمها فيها التاريخ اى ما بين الأوراس Aurès ، وبين قسطنطينة ، الى ابواب قرطاج ، له سبب تاريخى معقول • وهذا السبب ، هو وجود قرطاج نفسها • فالقبائل الرحل لاتستطيع العيش بدون مدينة (مجاورة) ، يعيشان معا عيشة وئام وصفاء ولكنها • احيانا ذو لجب هذه وتلك قطبان متضادان حقا ولكن مشتركتان أيضا • ولقد بعثت قرطجنة ، بوجودها فحسب ولاية نوميديا وكانت العامل الانسانى المكهرب لهذا الظهور الناتج عن تاثيراتها أضف الى هذا ، ان نوميديا ، كأرض ترابية ، كانت قابلة مستعدة لهذا الظهور وولاية نوميديا القرطجنية ثم الرومانية تتوافق مع ما سماه اباؤنا بـ « أنجاد قسطنطينة العالية » ، مقارنين اياها بأنجاد الجزائر ووهران العالية» • وهو تقسيم ساذج بسيط • صحيح ان انجاد الجزائر ووهران العالية ، حين تفوت « الحدود » Limes تصبح انجادا عالية ولكن لايصح هذا عليها بناحية قنسطنطينة حين تتجاوز شمالا « الحدود » • فهى فحوص مرتفعة واودية عالية فهى جهة تكونها الاحواض المغلوقة « والشطوط » وبالتوالى

مطمية ، ومغطاة بالاتربة المجروفة أو بعبارة أخرى فحوص ، ولكنها فحوص ذات حـدود ٠ والاتربة المجروفة لم تغط هاهنا قاعدة صخرية ذات ارتفـاع متوسط ، او انجاد ٠ بل انها غطت سلسلة جبلية ، هى امتداد لجبال الاطلس الصحراوية ، والتى تبرز لعينك قممها ، هنا وهناك ، على مائدة من الفحوص الملتفـة ٠ والاسباب الناتجة عن هذا ، جسيمة سواء كانت مناخية أم بشرية وهى ارض جافة ولكنها اقل جفافا من الانجاد العالية نفسها ، بل تتلقى جهات منها مقدارا سنويا من المطر يبلغ 350 ميليمتر ، وهو الحد الاقصى الذى يمكـن ان تقوم معه الحياة الزراعية ٠ وهى ارض مشتركة ، وسيطـة بين السهـول العارية حقا التى لا يتسنى فيه شيء آخر غير الرعى ، وبين الاراضى الزراعية حقا ومنذ اللحظة التى ندرك فيها طبيعة نوميديا المزدوجة هذه ، فنحن ندرك ان هذا الطابع الجغرافى قد هيمن هيمنة كبرى على تاريخها فان مثل هذه الارض دعوة ملحة لقبائل الرحل التى نراها تتمكن منها كلما ملكت القوة الكافية لذلك ٠ ولقد كانت هذه الارض القاعدة الترابية لرجال كسيفاكس Syphax وما سينيسا Massinissa اللذين وجدناهما ، محنطين داخل معالمهما القبرية ولكن من الساعة التى قامت بها سيطرة روما ، انقلب حال هاته الجهـــة رأسا على عقـــب

نوميديـا الرومانيـــة

ان هيمنة ذات أسلـوب غربى (هيمنة رومـا أو هيمنتنا نحـن) لا يمكن لها ان تنتظم مع القبائل الرحل ، ذلك انعامل الدائم على حياة فوضوية هـــذه الهيمنة تصل الى بث روح التفرقة بينهم بمجرد اقامة قواة للأمن ، وبفضل التغييرات الاقتصادية الناتجة عن هاته الاقامة ٠ وهاته التغيـــرات كانت ميسورة فى هذا البلد المشترك (بين ارض الزرع وارض الرعى) الذى اسمــه نوميديـــا ٠

ونحن اذا ما استثنينا هذا الاسم ، فان نوميديا الرومانية لاتذكرنا بالمرة مع ما كانت عليه نوميديا القرطاجنيه فلم يعد بعد وجود امراء كبار القبائل الرحل كمسينيسا ٠ فالسيطرة اصبحت بايدى برجوازية كبيـرة مشبعـــة بالثقافة اللاتينية تسكن غالبا مدنا جميلة التى تقدم لنا اليوم تيمغاد Timgad صورة منها (تبسة ، Tebessa ومدور Madaure) فكانت نوميديا الارض الافريقية التى استطاع الاستعمار الرومانى ان يقيم بها آياته الباهرة وعلى مثل هذا نجح الاستعمار الفرنسى فى القرن التـاسع عشر نجاحا كبيرا فى هاته الفحوص الجافة ، الوسيطة بين السهول العارية وبين الجهات الممطورة طبيعة ، كفحوص وهران والرسو الخ ٠

ان التـاريخ يعيد نفسه ، تقـوده فى طريقـة الارض الخالدة ٠ ذلـك لان البدو الرحل ، الذين يشكلون خطرا كبيرا عند ما تكون بأيديهم الاسلحـة ٠ لايبدون اية مقاومة اقتصادية فى بلاد آمنة تسهر عليها الجندرمة (هكذا!!)

ولقد كانت جندرمة نوميديا الرومانيا ، كما يعلم كلنا ، اللفيف الثالث IIIe Légion ، التى كان يعسكر بلمباز Lambèze قريبا من تبسة • واما الولايات التى كانت تواجه الاستعمار الرومانى مواجهة ومصادمة اقتصادية ، لايمكن له التغلب عليها ، فهى الاراضى التى تعيش فوقهـــا ديموقراطية زراعية مكونة من ملاك اهليين صغار ضربوا بعروقهم فى الارض فان بلد القبائل ـ الذى نملكـه ـ (!!) لم يفتـح ولـو بابـا الى الاعتمـــار الفرنسى فكما انك لاتجد فيه بقايا واطلالا رومانية كالتى تحدها فى بلد نوميديا ، التى لاتصيب فيها هذه الديموقراطية من السكان الصغار والتى لم تعن روما على ظهورها وما اعانت عليه روما فقيام نظام الاقطاع الكبير نظـــام ترى فيه اقطاعين قليلى العد ، من اصل لاتينى يستغلون الافا من العمـــال الاهليين • وهذه الطبقات الشعبية كانت الاحقاد الاجتماعية تحركها ضـــد أسيادها ، وكانت اختلاف اللغـات (كانت الجماهير تتكلـم البربرية أو اللغة الفينيقية) يجعل من أحقادها أحقادا قومية صرفة • وفيما يعود الى الدوفاتيست Donatistes والسيركونسيليون Circoncellions (1) فان القديس أو غستينيوس Saint Augustin ، دون ارادة منه ، قد عرفنا بنزعانهم التى كانت يشكل عدم استقرارها خطرا مداهما لبقاء نوميديا الرومانية •

ولقد حصل ، مع وصول الفـاندال ان اختفت الجندرمة أعنى اللفيف ويظهر أنه لم يحل محلها أية هيأة أخرى • فأدت هذه الحالة فى هذا البلد الذى يملك هويتين مختلفتين الواحدة زراعية والاخرى رعيية ، الى رجوع الرحل فيها من جـديـــــد •

نـوميـديـا البيـزنطينيـة

من خلال كتب بروكوب Procope ، نشاهد جيوش سولومون Solomon البيزنطينية فى اشتباكات مستمرة مع أمراء النوميد الكبار : يبداس Yabadas وأرتاياس Orthaïas ، اللذين بلغ صيتهما ما كان عليه صيت ماسينيسا • ولم يستطع البيزانطيون القضاء عليهما ، فلزمهم التفاهم معهما • ولم تعد بعد نوميديا الرومانية للحياة ، ولكـن عادت نوميديا ما قبـل الرومان ، نوميديا القرطجنية • وهذه العودة للحياة تفسرها تفسيرا ميسورا طبيعة البلاد نفسها وتجعلنا نفهمها فهما جيدا •

نشأت عن هذا ـ حسب القواعد الخالدة التى تسير حياة الشرق ـ علاقـات كلها تفـهم ، أحيانا بـين المدينة القرطجنية الكبرى (قرطاج) ، وبـين الامراء الرحل • وهذا التفاهم نراه مستمرا تماما فى مطلع الفتح الاسلامى •

(1) حزبين دينيين ، كل منهما يصبغ نزعة خاصة • فالدوناتيت نزعة الاهالى القوميين ، والسيركونيليون نزعة الاسياد الاجانب

بـدأ الفتح العربى الذى تتخيـله ، عند ما تطالع العرض الوجيـز فى كتب الدرس ، وقـع بسرعة كبيرة ، ولكنه فى الحقيقة قد كان فتحا صعبا استـلزم سنوات عديدة · ولم يفز العرب بنصر باهر نهائى ، الا بعد سبعين سنة ، وبعد حروب دامية ، وانهزامات شنيعة تبعها مرة الجلاء الكـامل · وذلك ناتج عـن الاتحاد الذى جوبه به العرب ، اتحاد ـ أوثق ما كانت تمكنه البلاد ـ بين مدينة قرطاجنة البيزانطينية التى جندت كل قواها ، وبين الامراء النوميديين ، كسيلة أولا ، والكاهنة من بعده · وهـذه الحالة ليست بدون شبه بتلـك التى كانت عليها بلاد الغول أيام الميروفنجيين Mérovingiens فقد استطاع كلوفيس بعـد أن هبت لنصرته الكنيسة المسيحية والشعب الغالو ـ الرومانى Gallo-Romain أن يوقف تيار الغزوات البربرية الكبرى ، وكسر شوكتها فأسس فرنسا ·

ويمكن أن نتخيل ـ ونحن فى ميدان الافتراض ـ ان الاتحاد بـين قرطاج وبين الامراء النوميديين لو استمر لادى الى نتيجة مماثلة للتى حصلت بفرنسا· ولكنه لم يدم · فكان كسيلة والكاهنة آخر أمراء النوميديين ·

وهذا فى الساعة التى دخلت فيها نوميديا فى عهد جديد من تطورها ، فأصبحت « بلد الشاوية » الذى نراه اليوم · وهذا الطور ليس بالغامض أو بغير المفهوم ان احتفظنا فى أذهاننا بصورة طبيعة البلد ·

بلـد الشاوية (نوميديا الحالية)

علينا أن نذكر ، فيما يعود لهذه الفترة ، حدثـا تاريخيا هاما ، هو ادخال الجمل فى شمال افريقيا · والجمل سيغير ـ كما ينتظره الباحث ـ من طبيعة وقرار الحياة الرحلية ·

لقـد كان نوميدى ماسينيا راكبى خيل · هم الذين كانوا يربون ويركبون الافراس النوميدية المشهورة فى التاريخ · ولكنهم ما كانوا فى حياتهم اليومية القبلية يملكون ، كالاجيال التى تبعتهم بعد قرون ، بيت الشعر الكبير المنسوج من وبر الجمل ، الذى يلفونه ويضعونه على ظهور الجمال ، ويحملونه دون مشقة مئات الاميال · لقـد كانوا يملكـون « المباليا » Mappalia وهى أخساس مكونة من غصون الاشجار أو من « التبن » فكانوا فى تنقلاتهم يحملون أسرتهم وآلاتهم فى ما كان المؤلفون اللاتينيون يسمونه « البلوسترا » Plaustra ، أى عربات يجرها الخيل ، والبغال والحمير والبقر · واذا استثنينا غزواتهم العسكرية على ظهور خيلهم ، يبدو لنا أنهم لم يتمتعوا ، فى تنقلاتهم القبـلية من مكان الى آخر ، بسرعة مماثلة لسرعة الرحل الحاليين من أصحاب الجمال · فلم يستطيعو الهيمنة على البلد كما هيمن عليها الآخرون · وبالفعل ، فان أراضى نوميديا ، ان نحن قارناها بالاراضى الواسعة التى يرتع فيـها الرحل بجمالهم ، تبدو لنا صغيرة الرقعة ، ضيقة الآفاق ، مخنوقة الحدود ·

وجميع المؤرخين متفقون على العصر الذى ادخل فيه الجمل . ظهر فى آخر ايام الامبراطورية الرومانية ، فى طرابلس أولا . ثم انتشر ببطء فى الجنوب التونسى ثم ظهر فى الجزائر الحالية مع الهيمنة الفاندالية والبيزنطينية . والحدث فى ذاته قديم لا ينازع فيه منازع . ولكنه أمر قد غفل عنه الباحثون فى أكثر الاحيان . ربما لانهم لاحظوه كما يلاحظون الحدث التاريخى ولكنهم أغفلوا أهميته الكبرى ومداه كحدث يمس بالجغرافيا البشرية

فالتغييرات التى أحدثها الجمل فى نوميديا خاصة يسهل اكتشافها ، ويكفينا أن نشير الى ما أصبحت عليه بلاد نوميديا . فلقد صار أهلها « الشاوية » . وكلمة « الشاوية » معناها « رعاة الغنم » كما يمكن أن نترجمها أيضا بـ Transhumants . فلقد انحط حال النوميديين من رحالة كبار الى حالة الانتقال « الرعوى » . ففى هذا البلد الذى هو التفافات من الفحوص ترى الرعاة والاغنام ترعى على سفح كل جبل ، قاطعة مسافة قصيرة بين القمة والفحص . وهؤلاء الرعاة يبدون لك كنسل النوميد الاقدمين . وعلى كل حال فهم ما زالوا دائما يتكلمون البربرية ، لغة ماسينيسا . ولكنهم لم يعودوا فرسانا بل هم جبليون مرتجلون ، لم يعودوا يملكون الخيل والمراكب التى مكنتهم فى ماضى الهيمنة على الفحوص . وبالتوالى كانت حالتهم سببا فى تشتيتهم الى قبائل متعددة قليلة الانفار . انهم فقدوا وحدتهم ، فأضاعوا قوة وروح التجمع والتكتل تحت امرة قادة أقوياء أعنى أنهم أضاعوا الوسيلة التى كانت تمكنهم من القيام بدور تاريخى .

هذه القوة وهذا الدور قد أضاعوهما حقيقة ، أمام صدمة الغزاة الجدد ، الرحل أصحاب الجمال ، المتشبعين بحياة الرحل ، وبالتوالى أقوى منهم (I) ، والذين نجوا منهم ،وقد احتفظوا باستقلالهم الداخلى ، بعد ما أجبروا على النزوج الى الجبال ، أى بعد ما تركوا ديارهم لغيرهم .

وهكذا أصبح هذا الحدث الذى لم يتعرض له العلماء بالبحث مفهوما وهو أمر يبعث الدهشة فى نفسى . فمنذ أيام قرطاج الفينيقية الى أواخر أيام القرن السابع أى طيلة ألف سنة ، ترى نوميديا ، دون انقطاع ، تحمل أو تصبح من جديد الولاية والارض الاهلية الاكثر أهمية سياسيا (فى شمال افريقيا) ولكنها منذ القرن الثامن الى يومنا هذا ، لم تلعب أى دور ، بل انها تماما غير موجودة (سياسيا) ، وهذا أمر طبيعى بما أنها لم تعد الممثلة للرحل الكبار ، الذين هم فى هذه الولاية ، أهم عامل فى تاريخها ، وأقوى محرك له .

بلاد الجنتول والزناتة Cetulie Zénetie

لقد أدخل الجمل على الصحراء ثورة مماثلة للتى أدخلتها السيارة على حياتنا المعاصرة . فلقد قرب بين الابعاد والمسافات وغير تغييرا تاما فى أسباب الاسكان والحياة .

وبعد وصول الجمل نشاهد أن الصحراء ، لاول مرة فى تاريخ الشمال الافريقى ، بدأت تأخذ مكانة بارزة • وهذا انقلاب هائل : لقد كانت شمال افريقيا ، الى ذلك العهد ، مفصولة تماما عن جنوبها • ولكن هذا الفاصل ، الذى كان فيما مضى دعة وأمنا ، سيصير أخطر الاسباب على حياة المغاربة • وعلى كل حال ، لقد كان النوميديون سكانا ضربوا بعروقهم فى الارض ، بينما الرحل الجمالة ، الذين سيحلون محلهم ، هم صحراويون • والرحل الصحراويون هم كأسود الصحراء ، ينبغى لك أن لا تتخيلهم مرتبطين ارتباطا وثيقا بالصحراء ولا بالمفازات المقفرة الجرداء • فالرحل يأكلون ويشربون كغيرهم ، ولا بد لجمالهم من الرعى • وأحسن مساكنهم السهول العارية ، يشبعها الطل اشباعا متفاوتا فى جهات الصحراء الشمالية ، وأعالى الجزائر ووهران • وهذه الجهات تكون تقريبا ما سماها الاقدمون بجتوليا Getulie ومعلوماتنا عن جيتوليا قليلة• والبرهان هو أن هذا البلد لم يكن يملك أهمية سياسية ، اذ أن روما تركته خارج حدود ممتلكاتها Limes • ولكن الحالة ستنعكس تماما •

فالسكان الجدد كانوا قبائل مختلفة ، تحمل أسماء مختلفة ، نجد بينهم مثلا الهوارة التى عرفت باسمهم الهقار Hoggar واللواتة التى يسميها بروكوب Procope والليقاتيين Levattes الذين قتلوا الجنرال البيزانطى سلومون Solomon ، وقبائل أخرى متعددة أدركت فى بعض الاحيان المجد السياسى • واستطاعت احدى هاته القبائل ، فى عهد متأخر جدا ، أن تهيمن على القبائل الاخرى ، وهى : الزناتة • نرى ابن خلدون ، فى القرن الرابع عشر يغدق اسمهم على كامل الرحل الكبار • وهو أمر فيه يسر ، وأرى من الصالح أن نسمى البلد الذى كان فى الماضى جيتوليا ، ببلاد الزناتة Zenetie • وحدود هذا البلد العامة ، تبدو للناظر فى جلاء وسهولة ، فهى فى الشرق تضم طرابلس الى الجنوب التونسى : وهذه هى نقطة انطلاقهم فى غزوهم ، ثم يدخلون من مسرب بسكرة الى الجزائر ويمتدون على كل أعالى الانجاد حتى نهر المولوية Moulouya ويضم بلد الزناتة فحوص وهران الجافة فيقيم بها عاصمته ، ذلك المركز « الحضارى » الهام : تلمسان قريبا من المغرب ومن الاندلس التى لعب بها أمراء زناتة دورا من أهم الادوار • وهذا البلد يضم كامل السهول ، هذا البلد الذى أخذ مكانة نوميديا ، أصبح محركا للتاريخ : فترى أمراء زناتة يحتلون المكانة التى كان يتمتع بها من قبل الكاهنة ، وكسيلة ، وماسنيسا •

محركون للتاريخ ، هؤلاء الزناتة ، الرحل الكبار • ان الامر ليقين وحق ! ولكنه يقين علينا أن نبرزه من دراسة الخريطة الجغرافية ، لانه لا يظهر لنا بالمرة ونحن نقرأ المؤرخين العرب ، انها الفوضى المتزاحمة التى زج فيها المؤرخون العرب أسماء القبائل والسلاطين والمعارك ، والتى نخرج من دراستها مكدودين متعبين ، ولكننا وقد استطعنا أخيرا أن نفرق بين مجموعتين بشريتين ملأتا بقرع سيوفها كامل أعالى العصر الوسيط • فمن جهة نرى القبائل والامراء الزناتيين ، ومن أخرى القبائل والسلاطين الصنهاجيين • ولكى نفهم حقيقة هذا

الامر علينا أن نبرز الحقيقة البشرية التى تختفى تحت هذين الاسمين البسيطين : زناتة وصنهاجة ؟ كل شىء يصير مفهوما منذ الساعة التى وصلنا فيها الى رسم مكان القبائل على الخريطة وعلى الارض ٠

التطاحن بين زناتة وصنهاجة

وكلما أخذنا طبيعة هذه الارض فى الاعتبار ، يظهر لنا بسهولة ان صنهاجة هم هؤلاء الذين نسميهم اليوم « القبائل » أعنى سكان الحضر ٠

ولقد كان « للقبائل » فى القرنى العاشر والحادى عشر ماضى مجيد ، لان الجنود الرحالة القبائل هم الذين مهدوا للخلافة الفاطمية القيام وفتح مصر ٠ وهذه حقيقة مطموسة ولكنها جلية عند الباحث ٠ ولقد كان « القبائل » فى بلد المغرب الكبير وفى الشرق المصرى ، أعضاد السلطة الشرعية ٠ ولقد جعل سلاطين صنهاجة ـ القبائل الاصليين ، كل قوى جبال « القبائل » العسكرية تحت امرة القيروان التونسية أى تحت امرة حضريين عريقين فى الحضارة ٠ ولقد كان هذا التلاحم الذى دام قرنا ونصفا زواجا متينا أمينا مثمرا يختلف كل الاختلاف عن الوحدة المفروضة السابقة ، تلك الوحدة التى مزقتها الاحقاد ، وثارت عليها الفتن وصبغتها الدماء والتى كانت الطابع العادى لعلاقات الرحل الكبار « بالحضر » ذوى الحضارة العريقة ٠ ولقد كاد سلاطين صنهاجة ان يؤسسوا بافريقيا ما لم يوجد قبلهم ، وحدة ان لم تكن « أمة » فهى على الاقل «دولة» بكل معنى الكلمة٠ ولكن الزناتيين كانوا بالمرصاد على الضفة الاخرى من الحدود ٠ تحركهم رغبات ضرورات ٠

وعلينا أن نتعرض للحقائق العميقة الجغرافية البشرية التى تلقى ضوءا جديدا على تطاحن صنهاجة وزناتة ٠ لقد كان « القبائل » فلاحين ضربوا بعروقهم فى الارض ، يملكون روح الملكية الخاصة ، ومحبة الارض ٠ ولهم غريزة التضامن « البلدى » وحاجة ماسة الى النظام ٠ فهم يشابهون ، من هذه الناحية ، الحضريين العريقين فى التحضر والذين يشعرون ، هم أيضا ، بحاجة ماسة ، حيوية ، فى وجود سلطة مشروعة ٠ وعندنا أيضا (أى فى فرنسا) تأسست الامة على التضامن بين الفلاحين وبين المدينة ، بينما الرحل الكبار متشبعون بغريزة معاكسة تماما ٠ فهم ، فى أسلوب عيشهم ، شيوعيون (هكذا !!) وقساوة حياتهم تجعل الفرد منهم ، يوم المعركة على الاقل ، جنديا باسلا تحت امرة قادته من الامراء ٠ ولكن لا تفتأ نفوسهم فى رغبة ملحة وأطماع مادية لا نهاية لها ٠ والرحل ، سياسيا ، فوضويون ومناقضون للنظام الاجتماعى ، يرغبون فى الفوضى التى يقوم سلطانهم بينها وفيها وهم الهدامة ، بل نفاة الحضارة ٠ وانتصاراتهم ليست بالتشييد لان الرحل يهدمون كيانهم ، فى لهيب من الاطماع واللذات المتطرفة غير المتعودة ٠ « فالقبائل » والرحل ، أعنى الصنهاجيين والزناتة ، عاملان وعنصران ضروريان ، قائمان بذاتهما ، لا يمكن أن يفصل بينهما شىء غير القوة (١)

(١) هذا رأى ابن خلدون ، الذى سماه « العصبية » ٠

تعرض الاستاذ ويليام مارسى بالبحث لاطوار تعريب شمال افريقيا فى دراسة

وفعلا ، بعد حرب طويلة كلها انقلابات ، انتصر الزناتيون فى النهاية • وانتصارهم مجسم على الارض • فعاصمتهم تلمسان ، فى أرض الجزائر ، هى المدينة الوحيدة الاسلامية (من مدن العصر الوسيط) التى استطاعت أن تحتفظ بالحياة ، وبئاثارها الزاهية التى تحليها كالجواهر ، تلك المعالم ذات الطابع الاندلسى ــ المغربى •

بينما عواصم « القبائل » ــ فلنضرب مثلا جميلا ، هو مثل بجاية Bougie بنى حماد ، العاصمة الكبرى فيما مضى ، والتى بلغ عدد سكانها مائة ألف نسمة ــ قد زالت كلها من على وجه الارض ، ولم تعد غير محل درس لعلماء الآثار •

لقد انتصر الزناتيون انتصارهم ، ولكن نتيجة هذا الانتصار لم تؤدهم ، طبعا ، الى أن يؤسسوا دولة افريقية زناتية : لان الرحل لا يعرفون كيف ينظمون دولة • بل كانت نتيجة انتصارهم هذا ، احتضار الحضار المغربية وتسهيل قيام نير أجنبى جديد هو حكم الاتراك •

تعــرب الزنـاتيـين

فى عرضنا الوجيز هذا ، أرى نقطة يمكن أن تثير النقاش الحاد لانها ربما تناقض ما سبق لى قوله • ولم نعد نرى اليوم الا آثارا يصعب رؤيتها بل ان الزناتيين قد زالوا تماما أو كادوا ، بينما بلد الزناتة ، تلك الارض الواسعة لا تزال أمام أبصارنا ، خالدة لا تزول ، تشقها كذى قبل ، قبائل الرحل الجمالة ، التى لم تتغير هى أيضا فى أسلوب عيشها • وما تغير عندهم ، انما هو لغة الكلام • لقد كان الزناتيون يتكلمون اللغة البربرية ، بينما اليوم على حدود تونس والجزائر ، وخاصة على كامل رقعة الانجاد العالية نسمع كل الرحل الكبار ، دون استثناء ، يتكلمون اللغة العربية ، بل هم يدعون انهم ينحدرون من أصل عربى •

نحن نعلم ان شمال افريقيا تعرضت لغزوين عربيين كبيرين يختلفان بينهما • أما الغزو الاول فهو الفتح الذى وقع أثناء القرن السابع مسيحى (الاول هجرى) قام به جيش منظم بقيادة دولة : جيش الخلفاء الامويين ودولتهم فأقاموا فى المدن دون أى مكان آخر محلات عسكرية ودواوين ادارية أى جنودا وموظفين ، غير متزوجين • فكان هؤلاء مبشرين ومعلمين ودعاة وحاملى بذور حضارة جديدة • هم الذين عربوا مدن المغرب الكبير بطريقة المدرسة ، والكتاب ، والادارة ، والتجارة • فلم يكونوا معمرين ولم يكن غرضهم ابدال جنس بجنس (I) واما الاعمار الاسكانى Colonisation de peuplement ، فى المقدار الذى حدث فيه ، لم يكن الا عمل الغزو الثانى الذى جرت فى القرن الحادى عشر ، وهو غزو قامت به قبائل بنى هلال وبنى سليم البدوية • وهاته القبائل كانت خلايا اجتماعية كاملة ، اذ كانت أسر بأكملها • ويدعى الرحل الكبار الذين يسكنون بلاد زناتة القديمة الانتماء الى هاته الغزوة الثانية ينتسبون الى هلال وسليم كاجداد

طويلة فى شكلها الآن :

William Marçais : *Comment l'Afrique s'est arabisée I. Les villes. II. Les campagnes*

من حوليات معهد الدراسات الشرقية الجزائر • الاولى سنة 1938 والثانية 1958 •

لهم . وينبغي علينا أن لا نعتقد ما ذهبوا اليه لاننا كثيرا ما نصادف في شمال افريقيا (رجالا وجماعات) تدعى أنسابا وهمية . فسلاطين صنهاجة ، حين أدركوا أنهم لا يستطيعون الانتساب الى العرب ، طلبوا لنفسهم نسبا حميريا ألم نشاهد ، أيام الحكم الفرنسى ، أسرة المقرانى الكبير ، تلك الاسرة القبائلية ، تدعى أنها تنحدر من مهاجرين أصلهم من أسرة أسياد مومورنسى Montmorency

لقد جاء هؤلاء البدو من صعيد مصر ، بعد ما قطعوا الصحراء التى لا يمكن أن تقطعها القوافل الا بعسر ؛ ولقد دخل 200 000 بدوى ، أرض المغرب ، تلك الارض التى كانت تعد عشرة ملايين من البرابرة ، فكان مقدار نسبة الدم العربى بها 2/100 .

ونحن نعرف حق المعرفة الخرابات التى يدخلها البدو على كل بلد حلوا به . ولقد ضرب هؤلاء البدو بعروقهم ، خاصة ، وبعد لاى ، بالجنوب التونسى ، منذ القرن الحادى عشر : ولربما عمروا هذه الارض فاعطوها طابعهم ، غير أن ابن خلدون ، فى قلب القرن الرابع عشر يقيم فرقا بينا حين تحدث عن سكان الجنوب التونسى ، بين القبائل ذات الاصل البدوى حقا وبين البدو الذين أصلهم من هوارة ، ولكنهم تنكروا لاصلهم (وادعوا أنهم عرب) .

نرى من غربى بسكرى وعلى الانجاد العالية ، قبائل زناتة ، وفى وجهة تلمسان ، نشعر أنها سيدة أرضها . وهى تتكلم اللغة البربرية التى تسمعها حتى فى أرباض تلمسان وعند أبوابها : واسر تلمسان وفاس المالكة للسلطان فى ذلك العهد اسر زناتة حقة ، هم (بنو عبد الواد) و (بنو مرين) .

ومنذ القرن الخامس عشر ، وقد دخلنا فى تاريخ العصور الحديثة التى نرى خطوطها الكبرى ظاهرة كل الظهور ، لا نبصر رغم ظهورها الحوادث العسكرية ، والانتصارات البدوية التى أدت الى انقراض زناتة ، بينما نرى ، بالعكس ، فى ظهور وجلاء ، الحوادث التى أدت الى خروج المسلمين من اسبانيا ، والتى كانت سببا فى ازمة عاطفية دينية اسلامية أدت الى اسلام وتعريب المغرب أكثر مما كان عليه من قبل .

ولقد كان البدو والزناتيون حلفاء طبيعيين ، يقرب بينهم ، فى المراعى ، وعلى ساحات القتال ، اسلوب واحد فى الحياة ، ومثل أعلى واحد فى النهب والسلب وفى نفى الحضارة والهدم . وندرك من هذه العلات ، السبب الذى أدى بهم الى التمازج والتلاحم .

وها نحن نرى أن القبائل العربية فى يومنا هذا هى فى الحقيقة من الناحية الجنسية ، وفى مقدار واسع ، القبائل الزناتية المستعربة ، فهذا افتراض معقول جدا . ولكنه افتراض دون أى مفعوليه حقيقية . فالرحل الكبار مقتنعون الآن اقتناعا كاملا بأنهم عرب ، ويعتبرهم سكان الجزائر كما يعتبرون أنفسهم . فكأنهم كانوا عربا فى الحقيقة . وهذا أدى الى قيام حاجز صفيق بين أصحاب الحضر وأصحاب المدر . تلك الفوارق التى وجدت فى العهد القديم بين المور

Maures والنوميد ، وبين صنهاجة وزناتة فى العصر الوسيط • فوارق ناتجة عن التناقض البائن والمضادة بين أسلوبيهما فى العيش ، ولكن من اللازم أن نذكر أن لغة واحدة كانت تجمع بينهما • ولكن القبائل والعرب اليوم ليسوا فقط أصحاب حضر وأصحاب مدر ، ولكن جماعتين بشريتين لكل واحدة منهما خاصيات بارزة •

الخاتمة

انه الغرور المحض لو ادعينا فى هذه الصفحات القليلة شرح فترات من التاريخ شرحا وافيا • ولكنه من السهل أن نبرز فى ما اذا تعرضنا بالدرس لبعض حوادث التاريخ ، أهمية الطبيعة الارضية ، والى أى مدى تلقى هذه أضواء جديدة ، غير منتظرة ، على تسلسل الحوادث التاريخية • ولقد اقتصرنا على الفارق الاساسى بين البداوة وبين الحضارة ، ذلك الفارق الذى كان لنا الخيط المرشد •

يملك تاريخ شمال افريقيا خاصية ، تصيب بالملل طبائع تفكيرنا نحن (الغربيين) هو أنه تاريخ لا يفضى الى شىء • ففى هذه الارض التى تمادى جنسها ولغتها طيلة الفى سنة ، لا نشاهد شيئا سوى تسلسل هيمنات أجنبية : قرطاج ، روما ، الفندال ، بيزنطة ، العرب ، الترك ، فرنسا • وكل وكل فاتح من هؤلاء الاجانب يطرد بدوره ، من طرف الفاتح الاجنبى الجديد الذى يأخذ مكانته • انه تاريخ يعيد نفسه ، يؤدى الى خيبة عامة تثير فينا الفشل واليأس •

ولكننا نستطيع ، فى آخر الامر ، أن نكشف هذا الفشل المتوالى الذى ينتهى ، حتما ، الى الفشل النهائى ، أعنى يمكننا أن نكشف عن التطور العام ، الذى وحده يهمنا • ان تطورا يصب فى فشل هو على كل حال تطور يفهمه العقل •

ولكن لكى نصل الى هذه النتيجة ، علينا أن نضع الحوادث فى اطارها الجغرافى ذلك الاطار الذى عجز المؤرخون العرب ــ وهم مصادرنا التاريخية ــ أن يروه • نتيجة لدماغهم الشرقى •

فمثلا ، عند ما يحدثنا أصحاب الحوليات عن الحروب الطاحنة بين قبيلتين ، بين صنهاجة وزناتة ، فالاطوار الغامضة المشتبكة لهذه المعركة لا تثير فى نفوسنا أى اهتمام • ولكن اذا استطعنا نحن ، أن نفرق بينهما وان نعرف ان هؤلاء ، بحتمية مساكنهم قوم حضر ، وان الآخرين قوم مدر ، ألا ترى أن التاريخ يتلقى ضوءا جديدا ينيره ويجلى أسراره ؟ (*)

(*) الفكر : نترك مسؤولية مزاعم صاحب المقال اليه ونهيب بالمؤرخين المحققين بهذا الشمال أن يضعوا الامور فى مواضيعها وأن يلقوا الانوار الساطعة على تاريخنا الماجد من دون تحيز أو عصبية •

فصـــل من كـتاب (القرح المتعفن)

ـ ٠٠٠ ما ان دق الجرس حتى تقدم نحـوى ثلاثـة مـن مفتشى البوليس ووضعوا القيد فى يدى ، وتكلم احدهم بدا لى انه الرئيس فقال :

ـ انه هـو

ثم أضاف موجها الى نظره :

ـ من مصلحتك أن تعترف ، هذه نصيحة مجانية أهديها لك ٠

فاجبته بكل هدوء :

ـ لا اتكلم الا عندما اريد ٠ واندرك بان لى ذاكرة قوية لاتنسى :

فهز الاخر كتفيه ٠ وقال :

ـ اما لجنة الانقاذ فاننا نقول لها ـ ميرد ـ ٠ فكلما وجهت شكوى ضدنـا منحنا مسؤولنا رتبـة أعلـى ٠

وأضاف الثالث :

ـ قل لاعضاء لجنة الانقاذ ياتون الينا ٠ وسترى كيف نسلط عليهم التعذيب مثل جميع الناس ٠ ءانذاك فهمت انه من العبث ان اواصل الكلام معهم فسكت ٠ فأخذوا أمكنتهم فـوق السرير والكراسى وتركونى واقفـا ، وبعد بضع دقائق دق اربعة مفتشين آخرين الباب واخذونى فى سيارة بيجو 403 واقتادونى الى نهج سوسى ـ مقر د٠س٠ت ـ وبعد ان اجتزت الممر الملىء بالبوليس السرى ٠ دخلت الى مكتب جلس فيه الكوميسار بيقو ، صحبة نحو العشرين من اعوان البوليس فبادرنى قائلا :

ـ اننا نعرف من تكون انت ٠

ثم سمعت على التوالى العبارات الاتية :

ـ صباح الخير يا باسكال ٠

ـ سنجعلك تبول الدم ٠

ـ سنضعك فى السفود ونفعل بك كما يفعل باللحم المشوى فوق اللهيب ٠

ـ ان جميع الناس تحت اوامرنا بما فيهم القاضى ٠

ـ وفيما اذا اشرفت على الهلاك بعد التعذيب فسنغرقك فى الماء ، ونضع على ظهرك ورقة كتب عليها ـ خائن لجبهة التحرير الوطنى ـ

ـ اما ان اعترفت ، فاننا سنوكل محاميا يساريا للدفاع عنك ، وسنعرف كيف ننقذك ٠

وافترضت ان هذه المسألة ترمي الى اعدادى للاعتراف • وبينما كنت منصرفا الى افكارى اذ قاطعنى صوت الكوميسار يقول :

ــ يجب ان تعترف الان ، وان لا تنتظر فرار رفاقك

لكنى سكت وانا اهمس بين شفتى ــ يارب امنحنى الشجاعة الكافية حتى اصمد ــ ءانذاك تقدم نحوى بعض المفتشين ، فوضعوا عصابة على عينى واعادوا الى يدى القيد الذى كانوا انتزعوه ، وسمعت وانا فى طريقى الى المجهول ، الكوميسار يقول :

ــ لاتنسوا ان مات تحت التعذيب ان تلصقوا ورقة ــ خائن الجبهة ــ فى ظهره وان تضعوا الحجر فى رجليه قبل ان تقذفوا به فى النهر •

ونزلنا الدرج الى ان وصلنا الساحة وهناك ادخلت فى سيارة ، سرعان ما انطلقت تجرى ، وكان الوقت ءانذاك حوالى منتصف النهار وعرفت من السكوت الذى صار يحيط بنا اننا خرجنا من باريس ، ودخلنا الى احدى الغابات

وبعد ثلاثة ارباع الساعة تقريبا توقفت السيارة واجتزت وانا ما زلت مغمض العينين ساحة صعدنا على اثرها الى الطابق الخامس وهناك ازيحت العصابة من عينى ووجدت نفسى فى بيت خالية مجردة ، والنافذة الوحيدة الموجودة فيها ، بها قضبان حديدية وكل ما فيها هو بضعة كراسي ومائدتان ، ومسخن وجدران خربة واجلسونى فوق كرسى ، ووجهى مستدير نحو الجدار ، ثم خرج اعوان البوليس ، وبقى مفتش واحد فقط راح يحدثنى بالعربية قائلا :

ــ انهم يعرفون ان باسكال من هو انت ، ولهذا فمن مصلحتك ان تعترف بكل شيء ، والا فانهم سيمزقونك اربا اربا • ارجو ان تصدقنى فانا ايضا اخوك

ثم استمر يلح على فى ان اجتنب التعذيبات واضاف :

ــ ما فائدة الانكار ما داموا يعرفون كل الحقيقة ثم ان دى غول سيحقق السلم عن قريب فليس هذا هو الوقت المناسب لان تترك نفسك تموت لان ذلك سيكون جنونا لا معنى له •

وتوهم السيد ان سكوتى يبشر بالخير فاقترح على ان يتولى هو بنفسه استنطاقى وبمجرد أن يسجل أجوبتى يقودنى الى قاضى التحقيق صديقه ــ باتنى ــ ، كما قال: ولكى يؤكد كلامه جرى نحو المكتب واغلقه بالمفاتيح ، قائلا بالفرنسية :

ــ أغلقت الباب حتى لا يقلقونا •

وبعد ذلك شرع يوجه الى الاسئلة عن علاقاتى مع الكنيسة ، ومع جيرلى ، وكارترون ، والكاردينال ليينار ، والصليب الاحمر الدولى ، ورابطة حقوق الانسان

والمحامين وخصوصا منهم الذين اعترف بعض المسجونين بأنهم أشهر المحامين اخلاصا فى الدفاع • ثم قال :

ــ ان جميع أحاديث المحامين مع موكليهم مسجلة حقا أنهم أغبياء ، اذن فما عليك الا أن تعترف بما نعرفه • وبهذا ستنقذ حياتك • أفهمت ؟

لكنى لم أجب • فأشعل بكل هدوء سيجارة واغتنمت هذه الاستراحة ورحت أقول فى نفسى :

ــ لقد سمعت بأن التعذيب بالكهرباء يجعل الانسان عاجزا ــ وشعرت بالراحة عند ما فكرت انى تركت ورائى ولدا يخلفنى •

وعند ما يئس نادى رفاقه وخرج فأمرنى هؤلاء بأن أتجرد من جميع ثيابى ، وعند ما كنت أنزع ثيابى ، على مهل ، كانوا يسلطون على الضرب بالايدى والركل بالرجل ، وفيما بين ذلك دخل اثنان من أعوان البوليس حاملين آلة الكهرباء المعروفة باسم ــ جيجينى ــ التى تولد التيار الكهربائى •

وعند ما صرت عاريا من ثيابى تماما ، وضعوا عصابة على عينى من جديد ، وأجلسونى على ركبتى وأوثقوا يدى ورجلى ، ووضعوا قضيبا من الحديد تحت ركبتى • وصرت فى هذه الوضعية لا أستطيع أقوم بأية حركة دفاع ، ثم رفعت من الارض وعلقت فى الفضاء ورأسى الى الاسفل • أما القضيب الموضوع تحت ركبتى ، فقد كان يعتمد من كلا طرفيه على المائدتين •

ثم راحوا يتكلمون بعبارات قذرة يصفون بها وضعى ذلك • ثم وضع اثنان منهم الخيط الكهربائى فى أصابع يدى ورجلى اليمينيين ــ وقال أحدهم سنقيس مبلغ طاقتك قبل ان نتولى تعذيبك •

لكننا سنشرب قبل ذلك كأسا على نخبك •

وسمعتهم يغادرون البيت ، وعرفت ان هذه الفترة أمر مقصود للزيادة فى مخاوفى • وفهمت من السكوت المحيط بى اننى وحيد • وحاولت أن انزلق فوق القضيب الحديدى حتى أقترب من احدى المائدتين ، ولكن دون جدوى أيضا ، وحينئذ شعرت بوجود شخص فى البيت ولمست وجهى يد سرعان ما نطق صاحبها ، فاذا هو صاحبى الاول المتخصص فى العمل النفسى وعاد يقول لى :

ــ تحدث ، تحدث بسرعة • وأنا أفك رباطك فى ظرف خمس دقائق ، ان ما يهم مسؤولنا هو علاقاتك مع القساوسة ، ومع المحامين ، وسواء كانت لديك علاقات معهم أولا ، فأنت تعرف ما هو المطلوب منك • تحدث فلا يهمك أمر القساوسة والمحامين ما دمت ستنجو أنت •

ـ ثم أضاف بالفرنسية قائلا :

ـ ها هم قد عادوا ، دونكهم ٠

ثم عاد مرة أخرى الى وراح يلح على أن أجيبه ، لكنى لم أكـن أنصت اليـه مطلقا ، وصممت على أن أواجه العذاب مهما كانت ألوانـه ٠

وعند ما ابتعد تقدم الآخرون وقالوا له :

ـ هل قـال شيئـا ؟

ـ كلا ! لـم ينفـع معـه شيء ٠

وبدأت حصة التعذيب ٠ وكـان أحد أعوان البوليس يحرك الآلـة المـولدة للكهرباء ٠ وتولى آخر امرار الخيوط الكهربائية على جسمي ومن حـين لآخر ، يقف بها عند الاعضاء الجنسية بطلب من رفاقه ٠ وفى فترات متقاربة يرشنى بالماء ـ لكى لا يبقى أثر للتعذيب ، ولكى يكون التعذيب أشد وقعا على جسمى ـ كما قالوا ، ولكى يمنعونى من الصراخ كانـوا قد وضعوا خرقة فى فمى ٠ وفى مرة من المرات توهمت أنهم أفرغوا المـاء عـلى رأسى لكنى عرفت من الضحكات المتعالية ان أحدهم كان يبول فوق شعرى ٠

وكانت التيارات الكهربائية تمر من خلال جسمى وتهزنى هزات عنيفة ، كما كنت أحس أن القضيب الحديدى يقطع رجلى اربا اربا ، ولم يكن فى استطاعتى أن أتحرك ولا أصيح ، وانما كنت أهتز بدون انقطاع ، واستمرت هذه الحصة مدة طويلة لا أستطيع أن أقدرها بساعة أو بساعتين ٠

ثـم فكت قيـودى ليعودوا من جديد الى رياضتهم بعـد حين ٠ وأقادونى ـ معصوب العينين ـ الى بيت مجاورة فى نفس الطابق ، وسمعت أحدهم يقول :

ـ يجب أن نقتل هذا الخنزير ٠٠٠

وبعد ذلك مددونى على بطنى فوق مقعد مستطيل ورأسى فى الفراغ لا يستند الى شيء ، ثم قيدوا على طول جسمى ووجهوا الى نفس الاسئلة ، فرفضت الاجابة عنها من جديد ، ءانذاك أمالوا المقعـد المستطيل قليلا وأغرقوا رأسى فى أنـاء مملوء بسائل هو خليط من الاوساخ والمـاء القذر والبـول ، فسمعت صوت السائل فى أذنى ولمست حرارته فى أنفى وقال أحدهم :

ـ لقد طلبت أن تطفىء عطشك ، فها هو الماء ، أشبع منه ـ وفعلا شربت فى المـرة الاولى لاطفى ضمئى الشديد لكنى شعرت بالغشيان وبرغبة شديدة فـى القىء ، فلما لمحوا ذلك على أغرقوا رأسى من جديد مرة أخرى فى السائل القذر٠

ومن حين لآخر كان أحدهم يمتطى ظهرى ثم يعمد الى الضغط على كليتى فأستمع بعد ذلك الى صوت الماء الذى يخرج من فمى وهو يسقط فى الانـاء ، وهكذا استمر العذاب ، وسمعت فى الاخير أحدهم وهو يقول :

ـ انه شديد المراس ، يا له من كلب !

ثم حلوا وثاقى ونزعوا العصابة على عينى وأمرونى بلبس ثيابى من جديد ، فتمكنت من التأمل فيهم جميعا ، ثم أعادوا الوثاق الى يدى وصعدوا بى فى سيارة نوع ـ أروند ـ ثم أعادوا العصابة الى عينى وانطلقت السيارة ٠

٠٠٠ وعند ما نزعت العصابة عن عينى من جديد شاهدت نحو خمسة عشر من أعوان البوليس يحيطون بالم٠ ـ ويبو ـ رئيس مصلحة البوليس د٠س٠ت٠ وقد عرفته لانى كنت شاهدت صورة له نشرتها صحيفة ـ جور دى فرانس ـ ٠ وهنا أعيدت على مسامعى نفس الاسئلة من طرف مفتش صفعنى لانى رفضت الاجابة ٠ وبعد ما يقرب من الساعة أو الثلاثة أرباع من الساعة أمر الم٠ ـ ويبو ـ بأن يقتادونى الى زنزانة تحت الارض ، وكانت الساعة آنذاك الثانية عشر والنصف ليلا ٠ وقضيت الليل فى الزنزانة ، وعلى الساعة السابعة من صباح الغد أيقظونى ، واقتادونى الى مكتب الم٠ ـ بيكور ـ الذى تكدست أمامه الوثائق المتعلقة بقضيتى ، وكان الجلادون الذين تولوا تعذيبى بالامس حاضرين الى جانبه ، بما فيهم المفتش الذى يحسن العربية ، ورغم أنى لم أتناول شيئا من الاكل منذ الامس وان ثيابى كانت تلتصق بجسمى من جراء القىء والعرق الشديد فان الم٠ ـ بيكور ـ لم يفكر فى أن يتهم أحدا واكتفى بأن يسألنى ويستنطقنى من الصباح حتى المساء من غير أن يعطونى شيئا من الاكل وبعد ذهاب الم٠ ـ بيكور ـ كلف أحد بحراستى ولم أتمكن من أن أتناول شيئا من الحليب الا من منتصف الليل بعد ان دفعت ثمن ذلك غاليا الى الحراس ٠ وتكررت نفس الحصة من الغد ، وكل يوم ، الى يوم II ديسمبر ٠ وفى يومى 4 و 5 ديسمبر ، حوالى الساعة السابعة صباحا ، التقيت بالسيدة ـ تيليتى ـ زوجة عامل مقاطعة ـ السين ـ التى جاءت لزيارة الم٠ ـ ويبو ـ بغير شك ٠

وفى يوم II ديسمبر على الساعة الحادية عشر صباحا بلغت حالتى من الاعياء درجة جعلت القاضى يأمر باحالتى على طبيب الوزارة ، فطلب الطبيب أمامى بواسطة الهاتف أن يحتفظ بى للعلاج ، وسلم شهادة بذلك الى أعوان البوليس الذين صاحبونى ، ثم أخذت الى الزنزانة على الساعة الواحدة بعد الظهر ٠ وفى

الساعة التاسعة من صباح الغد اقتادونى الى الكوميسار الذى تلا على – اعترافى – ثم بعد ذلك بيوم أخذت الى مركز التحقيق العدلى وهناك انصبت علي شتائم عديدة من طرف أعوان البوليس الذين كانوا يهددوننى بالكهرباء وكان يبدو عليهم انهم يجهلون انى عذبت بعد • وعلى الساعة الثالثة قدمت الى قاضى التحقيق الم• – باتينى – الذى نظر الى شعر لحيتى الذى لم يحلق منذ اثنى عشر يوما والى وجهى الملىء بالجروح ثم قال لى :

– انك متهم بالمس من أمن الدولة وبمحاولة تكوين جمعية منحلة ، وستذهب الى سجن – فرين – •

فنظرت اليه طويلا ولم انبس بكلمة ، فقال لى :

– ماذا تريد ؟

فلم أجب ، وآنذاك قال للحراس :

– اذهبوا به •

من قصائد العدد المقبل

المعبد المتهدم	لاحمد المختار الوزير
من وحي الرباط	للصادق مازيغ
ثورة الشباب	للشاذلى عطاء الله
تحية القيروان لاختها ـ بغداد ـ لمحمد مزهود	
الجبل الاخضر	نور الدين صمود
ذكريات عامل	محمد بحر العلوم (العراق)

دمـــــوع غـــــالية

بقـلم : **حسن نصر**

أبـى ... حبيبـى

لا شك انك لم تنم ليلة أمس .. ان قلبى يقول لى ذلك .. وانك لم تجرب ولو الذهاب الى فراشك .. بل لعلك قطعت الليل بأكمله تجوب خلال أشجار البرتقال .. وبرنسك الرمـادى فوق رأسـك .. وكلبنا « ندند » يركـض خلفك .. وقطرات المطر تتساقط على كتفيك من على أوراق الشجر .. تماما مثلما تعودت أن تفعل ذلك كلما قربت ثمرة البرتقال أن تنضج .

آه .. عفوك يا أبى .. لقد نسيت .. نسيت أن الجنود قد قطعوا كل تلك الاشجار الحبيبة .. وانهم قتلـوا أخى حينما حاول أن يعترضهم .. وضربوا جميع سكان حينا .. وضربوك أنت يا أبى بتهمة مد ثوار المنطقة بالخبز ...

ولم يكن كل الذى فعلوه ليرضى غرورهم .. فعمدوا الى أختى « سعدية » وأخذوها من بيننا .. دون أن يستطيع أحد منا أن ينبس بحرف واحد .. ولم أنس يا أبى ما حييت منظر أختى .. والجنود يسوقونها أمامهم .. ودموعها تتقـــاطـر .

ولقد حاولت يا أبى فى تلك اللحظة أن أرفع عينى الى وجهك .. ورأيت وجهك .. كان لونه فى لون الدم .. ثم بدأ يصفر .. يصفر الى أن أضحى فى لون الليمون .. والدموع .. الدموع من عينيك اللتين لم أعرف انهما بكيتا قبـــــل .

وحتى عند ما مات جدى .. فقد كنت ألحظ جميع الناس عيونهم تبكى .. الا عينيك أنت يا أبـى ..

وخفت عليك فى تلك اللحظة .. أكثر مما خفت على أختى ، وأكثر مما كنت خائفة على نفسى .

ومضت برهة من الزمن .. وأنت طارق الى الارض .. دون أن تبدى أى حركة .. ثم رأيتك ترفع رأسك ..

لم يكن فى وجهك أى تعبير عن حزن أو عن ألم ٠٠ كان وجهك جامدا لا يقول شيئا ٠٠ ثم انك تحدثت الى أمى بصوت تعب قلق قلت :

ــ لا يمكن أن يرى الانسان ابنته تساق أمام عينيه قسرا ، وهو يتفرج عليها كالمعتوه ٠

وأجابتك أمى :

ــ ان المعتوة حقا هو الذى يفكر أن يفعل شيئا فى مثل هذه الاحوال ٠

ولكنك قلت لها يا أبى :

ــ أرى من الانسب أن تأخذى ابنتك ، وتفارقى هذه الارض ٠٠ فالحدود التونسية قريبة منا ٠٠ وسوف تجدان من يساعدكما فى الطريق ٠٠ انهم كثيرون أولئك الذين يرحلون عن الجزائر هذه الايام ٠

ــ وقالت لك أمى :

ــ وأنت ٠٠ ألست تنوى الذهاب معنا ؟

ورأيتك تشيع عينيك يا أبى عبر الحقول ٠٠ عبر الاشجار المقطوعة ٠٠ وقلت فى عزم :

ــ كلا ٠٠ أنا سأبقى هنا ٠

وأردفت أمى تقول لك :

ــ اذن وأى داع لذهابنا نحن ما دمت أنت ستبقى هنا ٠٠ واذا كنت تخشى علينا فأقول : ان ما كنا نخشاه ونزعج منه قد حصل بعد ــ سواء أكان ذلك بقتل ابنى ، أو اختطاف ابنتى أو قطع أشجار الحقل ــ قد حصل وقضى الامر ٠٠ وماذا ننتظر أكثر من ذلك ؟٠٠ اننا سوف نبقى حيث أنت ، نموت أو نحيا معا ٠

وكنت يا أبى وأنا أتبع حواركما مستندة بظهرى الى الحائط ، قد شعرت انك لا تقول كلاما صحيحا ٠٠ وان ما تقوله أمى يبدو لى معقولا ٠٠ وكنت أخشى أن يظهر منك ما يدل على التزامنا بالرحيل ٠

وظللت أرقب عينيك ٠٠ وأنت تنتقل بهما بين الحقول ووجه أمى ، وأنتظر ماذا ستقوله بعد ان فرغت أمى من كلامها ، وجاءنى صوتك :

ــ أعرف أنه خير لنا أن نبقى معا ، من أن نفترق ٠ ولكن هل ترضين الموت

وأنت جائعة ، صامتة ويداك مكتوفتان ، في الوقت الذي يتساقط فيه مئات الابطال ، وجوههم ملوثة بالدماء ، وأيديهم متشبثة بالارض ؟!!

وكانت عيناي يا أبي وأنا أنصت لكلامك مثبتتين على صدر أمي ٠٠ واذا بي أراه يهتز ٠٠ فتطلعت اليها ٠٠ فاذا هي تبكي ٠

لقد تأثرنا من كلامك أمي وأنا ٠٠ ثم اننا رحلنا بعد ذلك وحيدتين ٠٠ وفي الطريق اعترضنا أناس كثيرون كما أعلمتنا بذلك ٠٠ نساء ، وكهول ، وأطفال ، صغار ٠٠ وكانوا فقراء تعساء ٠٠ ثيابهم عفنة ممزقة ، تتصاعد منهم رائحة كريهة ٠٠ رائحة لم أذكر اني تنفست مثلها في حياتي ٠

ولقد نمت بينهم يا أبي ٠٠ أجل بل ان واحدة منهم ظلت تحتضنني كامل الليل ، وتقبلني وتقول لي : انني أشبه ابنتها ـ التي قتلها الجنود ـ في كل شيء ٠٠ شعري الاسود الطويل ، عيني الشهلاوين ، قدي الممشوق ٠٠ بل حتى في صوتي وفي ابتسامتي ٠

وكنا نسير ملتصقين والجوع ٠٠ الجوع يا أبي يعصر أكبادنا ٠٠ وصراخ الصغار المزعج ٠٠ ثم ان هناك الجنود يتعقبوننا ويقتلوننا الواحد بعد الواحد ٠٠ وأشياء أخرى كثيرة ٠٠ لا أستطيع أن أنساها على طول عمري ٠

وليلة أمس يا أبي ٠٠ عبرنا الحدود الفاصلة الى تونس ٠٠ ولكنني لم أصلها بصحبة أمي ٠٠ لقد وصلتها وامرأة أخرى ٠٠ تلك التي قلت لك انها تحتضنني وتقبلني وتجفف دموعي ٠٠ لقد ماتت أمي ٠٠ فهل تراك يا أبي كنت نائما ليلة ماتت أمي ٠٠ ان قلبي يقول لي انك لم تنم ٠

ابنتك

أضواء الفكر

الاجتهاد أساس التطور

قال السيد الرئيس في خطاب المولد النبوي الشريف بالقيروان :

« ... واذا كان احتفالنا الليلة قد اكتسى في الانظار حلة زائدة من النور والبهجة بهذا اللألاء الكهربائي الذي سرى في الثريا الجديدة الماثلة لبهو هذا الجامع جمالا وجلالا وهي الثريا التي كنت سعيدا بأن أتحف بها هذا البيت ثم كنت سعيدا بأن توليت الآن بيدي تنويرها لاول مرة فان لهذا العمل في نفسي من الحقيقة المعنوية أضعاف ما له في الابصار من المظهر السني .

ذلك أني أتمثل في هذا الهيكل الديني العتيق ما شادته المعارف والافكار في هيكل الدين الاسلامي من الآداب العالية والتشاريع الحكيمة المبنية على أركان الدين وقواعده والمرتكزة على أساسين : أساس الوحي الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، وأساس العقل الذي ارتقى به النوع الانساني على البهائم والسوائم حتى أتى بعجائب الاكتشافات التي نشاهد منها كل يوم ما هو أعجب مما شاهدنا في اليوم الذي قبله حتى انتهينا الى حدث الساعة العظيم المتجلي في تسلط البشر على القمر وارسال الكواكب الصناعية تسبح في الافلاك . وان النفس لتمتلىء اعجابا بمبلغ الحرية العقلية التي منحها الاسلام لمتبعيه حيث مكنهم من التصرف في أحكام الدين وأوكل اليهم مراعاة مصالحهم الحيوية وحياطتها بسياج من التشاريع الدينية مبناه الاجتهاد مصيبا كان أم مخطئا وغايته المصلحة التي تدور الاحكام بدورانها وتتطور بتطورها ، ولقد كانت الحياة التشريعية لوطننا التونسي كغيره من أوطان اسلامية أخرى مظهرا رائعا لهذه المعاني من التطور الحر وميدانا واسعا برز فيه اعلام من المشرعين المجتهدين لم يزل هذا الجامع بالخصوص يردد صدى حكمتهم التشريعية الدينية ناهيك بأمثال أسد ابن الفرات وسحنون وابن أبي زيد واللخمي والمازري وعبد الحميد الصائغ وابن عرفة والبرزلي وابن ناجي ، فلقد كان كل واحد من هؤلاء الاعلام يمثل من حاجات عصره وتطلباته ما بنيت عليه تحاريره الفقهية ، فكان الذي يتقرر في عصر قد يتقرر خلافه في عصر بعده وبذلك اختلفت الانظار باختلاف طرائق الاجتهاد وتقادير مقتضيات الاعصار والاقطار .

ثم كان الركود الذي اعترى الفقه منذ القرن التاسع مقارنا لشيوع البدع

والتفسخ الخلقي والانحلال الاجتماعي حتى عزلت الحياة المدنية عن الحياة الـــدينيـــة ٠

واتخذت الدول الاسلامية في نظمها وأحكامها شرائع أجنبية ما أنزل الله بها من سلطان ، فسادت الفوضى وعم الجور حتى اذا طلع فجر النهضة الحديثة في أواخر القرن الماضي انبعثت الدعوة الى العود الى المبادىء الاسلامية بتحرير الفكر ومقاومة البدع الضالة وفتح باب الاجتهاد ٠

وعلى تلك الدعوة الاصلاحية السلفية نحن سائرون في تخطيط عملنا لاصلاح الهيكل التشريعي لجمهوريتنا فلا نعرض عن مبادىء الاسلام كما وقع الاعراض عنها في الماضي ولا ندعي انها لا تفي بحاجات العصر ولكن نتفهمها حق التفهم ونفكك جوهرها عما اتصل بها من آثار الاعتبارات العرضية المسندة الى أعراف منقرضة أو أفكار ينبو الواقع عنها وبذلك يشرق في حنايا هيكل التراث الفقهي الاسلامي من كهرباء العصر وتقدمه الصناعي مثل ما أشرق في حنايا هذا الجامع الليلة وزانه من حسن تناسق الصناعة العصرية مع معالم البناء الاصلية الخـــالـدة ٠

ولنا يقين بأن من بين علماء الدين في هذه البلاد من هو بمنزلة سامية من سعة العلم واصالة الفكر ورسوخ القدم في العمل الاصلاحي تمكنه من أن يعين الدولة في مقاصدها الاصلاحية التقدمية في نطاق المحافظة على مبادىء الدين وحسن التبصر في تفهمها بالنظر الحر كما أن لنا رجاء شديدا في أن التعليم الديني بالجامعة الزيتونية يخرج لنا جيلا جديرا بأداء هذه الرسالة الهامة ٠٠٠ » ٠

• **ما يقال عن « الفكر » :**

نقل في ما يلي بعض ما كتبته زميلاتنا الشرقية حول نشاطنا وأعدادنا الخاصة من دون أن نعلق عليه حتى يحكم القراء بكل حرية ٠٠٠

صحيفة العلم المغربية :

استطـــاعت تونس حقا ، أن تسير مع القافلة بثقة كبيرة ، وبمزيد من الاطمئنان أيضا ، وأن تفتح لكتابها وأدبائها آفاق واسعة خارج الجمهورية ، واستمع العالم الى صوت هؤلاء الكتاب وهؤلاء الادباء ، وقال رأيه فيهم ، واستمع الى آرائهم فيه ، ومن خلال كل ذلك توجد الحياة ، لان مجال الانفعال يوجد أيضـــا ٠٠٠

وفى تونس ٠٠ تصدر مجلة شهرية مشرفة ، هى مجلة « الفكر » التى تناقش التطورات الادبية ، وتحلل القضايا الفكرية فى كثير من الوضوح ٠٠ وكثير من « الذاتية » التى نتجت عن ثقة بنفس أولا وأخيرا ٠

وقد أصدرت مجلة « الفكر » عددا خاصا بمناسبة الدورة الرابعة لمؤتمر الادباء الذى انعقد فى الجمهورية ، وأصدرت عددا آخر عن « قصة القصة فى تونس » ٠

وان من شأن هذه الاعداد الخاصة أن توضح الحركة الادبية أكثر ، وأن تبلورها للقراء ، وأن تبين الى أى مدى وصل الانتاج فى هذا الميدان أو ذاك ٠

واذا كنا فى المغرب نأسف ونتساءل أيضا لعدم وصول المجلة الى السوق رغم ما يربط تونس والمغرب ، فاننا نتقدم باقتراح ٠٠

ان فى المغرب مجلة « دعوة الحق » وهى مجلة تشرف المغرب حقا ، وتأخذ طابعا فكريا خاصا يتيح لها أن تمثلنا تمثيلا كاملا ، كما أنها تحقق فى كل عدد مزيدا من النضوج الفكرى ، أما توزيع أبوابها فهو على مستوى عال ٠٠

ماذا لو أن مجلة « دعوة الحق » أصدرت بدورها أعدادا خاصة عن القصة ، والشعر ، والابحاث الدينية ، والمقالة ٠٠ فى المغرب طبعا ؟

وماذا لو صدر كل نصف سنة أو كل سنة عدد خاص من مجلة الفكر فى تونس ، ومجلة دعوة الحق فى المغرب ، فيه مزيج من الاستنتاجات المأخوذة من العددين الخاصين عن الشعر أو المقالة أو غيرهما ؟

ان ذلك سيتيح لنا أن نتقارب فى الميدان الادبى بصورة كبيرة ، وبالتالى أن نخرج من عزلتنا الفكرية ٠

صحيفة النهار :

توالى مجلة « الفكر » الثقافية الشهرية صدورها فى تونس حاملة بين دفتيها نتاج أهل القلم فى تونس وخارج تونس ، من شعر الى قصة ومسرحية ودراسة ٠

ففى عدد أذار السادس كتب سيد قطب ملاحظات تحت عنوان « أضواء من بعيد » ونشر الصادق مازيغ قصيدة طويلة بعنوان « أيها الشعر » ، ورأينا الى جنبها قصائد لمحمد الشعبونى وأحمد مختار الوزير ومحسن بن حميدة وأنطوان رعد ونور الدين صمود وصالح الخرفى والشاذلى عطاء الله ٠٠٠ مع دراسة لفتحى سلطان بعنوان « بين الاقتباس والتأليف » والخ ٠

وخصص العـدد السابع بـ « قضية القصة التونسية » والقصة عـلى وجـه العموم ، واشترك بالاستفتاء فيه عثمان الكعاك ، والدكتور الطاهر الحميرى ، وناجية ثامـر ، والدكتور محمد فريد غـازى ، ومحمد الفاضل ابن عاشور ، والمستشرق « بارك » • ونشرت فيه قصص لمحمد العربى عبد الرزاق ، والطاهر وطار ، ووليام سارويان ، وجواد صيداوى ، وتيبورديرى ، والجندى خليفة ، ومحمد منصور ، ورضا معاوية • ونشرت دراسات فى القصة لمصطفى الفارسى ، ومحمد المرزوقى ، وعمر فضة ، ورضا معاوية ••• ويعد هذا الجزء من « الفكر » مرجعا فى القصة لا غنى عنه لكل باحث فى هذا الباب وكل مثقف •

وأخيرا جاء عدد نـوار من المجلة وفيه كالمعتاد طائفة من المباحث الى القصائد الى القصص مع باب خاص أفرد للحركة الادبية فى العالم وكانت حصة لبنان منـه كبـــيرة •

مؤسس المجـلة ومديرها **محمـد مزالـى** • وهى الآن فى سنتها الرابعـة • والصفاء الذى يتجلى من هذه المجلة ، والاخلاص الذى لا تفتأ تسير عليه ، كفيلان بجعلها فى القريب احدى منارات الفكر لا فى تونس وحدها بـل وفى العالم العـربى بأســـره •

بـــيروت المســـاء :

مع الفـكر فى قضية القصـة التـونسية

القصـة التونسيـة جنـين يخشى أن يولـد زنيمـا

بـين يدى مجلة أدبية راقية تصدر فى تونس هى مجلة « الفـكر » ولقـد درجت هذه المجـلة الفكرية على اعداد بعض مجلداتها ، لقضايا أدبية خاصة بالاضافة الى مجلداتها الدورية الممتازة •

وفى هذا المجلد تعرض مجلة ـ الفـكر ـ قضية القصة التونسية على بعض الادباء كالاساتذة عثمان الكعاك ، والدكتور الطاهر الحميرى ، والاستاذة ناجية ثامـر ، والدكتور محمد فريد غـازى ، والاستاذ محمد الفـاضل بن عاشـور وغـيرهـم •••

ولقـد سألت المجلة عن أسباب افتقار الادب التونسى الى فن القصة وعـن مشكلة اللغة القصصية والوسائل الناجعة للنهوض بالقصة التونسية •

ونحن لو تعرضنا لاجابات الادباء التونسيين الكرام لوجدناها كلها تزيـد

الطين بلة ٠٠ وتمعن فى تشخيص الداء دون محاولة ايجاد الدواء الشافى لهذا الــداء المخيف ٠

والحقيقة ان القصة بدأت فى مطلع هذا القرن تأخذ طابعا جديدا فى جميع ديــار العروبة ٠ بحيث انهــا لم تعد وجدانية حميمة وحسب ٠٠ بل صارت موجهة ذات صبغة سياسية معينة تدعو الى التحرر وتنادى بالكرامة الوطنية والاستقــلال الــذاتــى ٠٠

ونحن لو قابلنا بين ما كان يجرى فى لبنان قبل ان نــال استقلاله التــام الناجز وبين ما كان يجرى فى تونس قبل استقلالها أيضا ٠٠ لرأينا الشبــه الكبير ولأدركنا أن القضية الموجهة لم تكن قبل نيل السيادة الوطنية ممكنة التحقيــــــق ٠

أما اليوم ــ وقد سارت القصة فى لبنان والعالم العربى شوطا بعيدا فاننا نرجو من الادباء التونسيين أن لا يخافوا على مصير القصة عندهم طالما أنهــم يتخلصون شيئا فشيئا من الثقــافة الاجنبية ومن التوجيه السياسى الدخيل ويعملون على بناء وطنهم على أساس تقدمى ٠

ليعلم الادباء التونسيون ٠٠ ٠٠ جديد ٠٠ وخاصة المساهمون فى مجــلة الفكر الزاهرة ان البقاء لن يكتب للقصة الريفية أو المحلية وحدها بل هو وقف على مقدار التوجيه الذى تحمله القصة بين دفتيها ٠٠

واذ ذاك فلا تعــود مشكلة العامية تبــرز الى الوجود ولا يعــود هناك مجال للخوف على مصير القصة العربية فى تونس الشقيقة

عن بيروت المساء فى تموز « جويلية » 1959

• السيــاسة وحــدهـــا !٠٠

تعـــــرض الاديب رجاء النفاس فى جريدة الجماهير الدمشقية التى وصلنا نبــأ اختفائها أخيرا الى هؤلاء المتشادين المتكاثر عددهم فى العالم العربى اليوم الذين يخلطون بين الادب والسياسة ويظنون أن الادب مجرد ترديد لشعارات سياسية معروفة قائلا بالخصوص :

« ٠٠٠ هذا نوع من الادب يدل على العجز والقصور ، وهو نــوع من الادب زائف ، لا يخدم القضية السياسية وانما يشوهها ٠ ولاضرب لذلك مثلين ؛ ذلك الشعر الذى سمعناه فى مهرجان دمشق : وقف عدد من الشعراء يتحدث عن القضية العربية وعن الكفاح العربى ٠٠٠ لقد كان عدد كبير من القصائد التى ألقيت عن هذه الموضوعات نوعا من « النظم السياسى » لا هو من الادب ولا هو من

السياسة . ومثال آخر : جاءتنى فتاة ناشئة تهوى كتابة الادب والقصة خاصة وقدمت الى بعض قصصها ، وقبل أن أقرأ من هذه القصص شيئا تحدثت معها عن ثقافتها وسألتها بعض الاسئلة العامة عن حياتها وعرفت منها أنها لا تقرأ الا بعض المجلات السطحية التـافهة !.. ثم بدأت أقرأ قصصها ، فوجدتها كلهـا تدور حول موضوعات سياسية فاقعة ، وعرفت بعد ذلـك ان هذا هو المعنـى الوحيد للفن كما تفهمه !

السياسة أولا ، أو السياسة وحدها ··· مرض من الامراض التى يعانيها أدبنا المعاصر . فخدمة السياسة وخدمة القضية القومية تكون بخلق أدب يصور النفس فى المجتمع ويعرض للمشاكل الاجتماعية والانسانية الكثيرة فى هـذا المجتمع . لا نريد أن تكون السياسة ـ كما يقول أحد الكتاب الاوروبيين ـ : « غنيمة طيبة للنفوس الخاوية التى تبرأ من كل قراءة بعد أن تنفد الجريدة ! »

وقد سبق أن تعرضنا لهذه الظاهرة عند الحديث عن مؤتمرى الادباء العرب الثالث والرابع ونبهنا الى هذا الخطر .

◆ أثـر التـرجمــة :

وكتب نفس الكاتب بنفس الجريدة بعض خواطر حول الترجمة وأثرها فى « الادباء » العرب لا يعدم قرائنا الفائدة اذا هو طالعها . يقول رجاء النقاش :

كثــرت الترجمات عن الادب الانسانى العالمى ··· ترجمة النصوص الادبية وترجمة الافكار الحضارية المتصلة بالثقافة ثم النظرية الاشتراكية والنظرية الوجودية ··· وأقبل عدد كبير من كتابنا الجدد على قراءة هذه الترجمات ··· ولكن شيئا غريبا خطيرا حدث ··· لقد فقد بعض كتابنا شخصياتهم تماما أمام المدارس الاوروبية الوافدة ··· حتى أنـك لتقرأ لبعض الكتاب وخاصة فـى ميدان النقد الادبى وميدان القصة القصيرة فتلمح أثر سارتر أو جوركى أو هذا الكـاتب أو ذاك بصورة مشوهة مؤلمـة ··· تبحث عن شخصية الكـاتب فلا تجدها ··· تبحث عن جذورها فلا تجد هذه الجذور ··· هل هذا كاتب عربى ، أو نسخة مترجمة باختصار وتشويه من كاتب أوروبى ؟.. انك لا تستطيع أن تجد اليقين على الاطلاق .

ان الثقافة الاوروبية التى يكتسبها الكاتب العربى عن طريق الترجمة أو عن طريق القراءة المباشرة ينبغى أن تكون غذاء ينمى شخصيته الاساسية ويطورها ، ولن تكون هناك فائدة من هذه الثقافة اذا وقف أمامها الكـاتب العربى ضعيفا فاقد الثقة باستقلاله ، وحدد وظيفته بالتقليد ··· والانتساب الى مدرسة ثقافة كالوجودية أو الاشتراكية أو غيرهما ··· انـه فى النهـاية سيصبح نسخـة مشوهة من أصول أجنبية كما نرى فى عدد من كتابنا .

علينا أن نهضم الثقـافة الغربية هضما جيدا حتى نستفيد منها ونتأثر بهـا تأثـيرا حقيقيـا مثمـرا .